مُهْرَة

...

(صفحة خاصة بالناشر)

إيمان سمير علام

مُهْرة

رواية

الطبعة 1 / 2019

إهـداء

...

...

...

رآها تهتز في مشيتها كأنها مُهرة، شعرها الناعم ذو اللون البُندقي الداكن ربطته بإحكام على شكل ذيل فرسة عربية أصيلة يكاد يخطف الأبصار، بنطالها الضيق القصير شمّر عن ساقين كجُمّار النخيل؛ مرسوم فوق كعبها بمعقود الساق وردات صغيرة زادت الساق حسنًا على حسنه، أما ذراعاها فقد اكتسيا بلحم لين متماسك في غير تهدل، وبخصرها هيف وردفها ثقيل، ذهب لُبه وطار عقله وهام بها، فسأل عنها بنت من هذه؟!

أجابه صديقه (هاشم):

– هذه (هديل) يا (خليل) ابنة الشيخ عرفة الكفيف صاحب الكُتّاب الذي كنا ندرس فيه ونحن صغار، ألا تتذكرها؟!

– معقول هذه (هديل) الطفلة التي كنا نركض خلفها ونداعب شعرها الطويل منذ قليل؟!

– تقصد منذ سنوات يا (خليل) لقد مضى على ذلك ما لا يقل عن عشر سنوات، وهي الآن فرسة يتهافت الفرسان لامتلاكها، ولكن أين هم وهي؟

– ولماذا؟!

– لأنها أجمل بنات القرية تقريبًا، وأكثرهم علمًا، وأرقاهم خلقًا، تأبى أن تتزوج إلا بمن تحبه ويحبها، فهي مهرة جموح، بالرغم من صغر سنها فهي كالقمر ليلة الرابع عشر، وهي أيضًا أظن أنها أتمت عامها الخامس عشر، لكن عقلها يسبق سنها، ورفضت كل من تقدموا لخطبتها حتى الآن؛ لأنها تريد أن تستكمل دراستها ثم ترتبط بمن يهواه بعد ذلك قلبها.

– كلام غير صحيح؛ ما من فتاة إلا وأمام رنين الذهب تميل، وتصوغها خاتمًا بإصبعك، يترك التعليم بل ويترك أهله من أجل أن يظل في يدك.

– لا أظن أنها من ذلك النوع من الفتيات يا (خليل)، لقد تقدم لخطبتها أغنى أغنياء عائلتها والعائلات الأخرى، لكنها أبت وصمدت على مبدئها.

– لنرى يا صديقي، تراهني أن هذه البنت ستكون خاتمًا في يدي قريبًا؟

– ماذا نويت بابن قريب العمدة؟!

– نويت خيرًا، نلتقِ قريبًا يا صديق، سلام.

مرق (خليل) كالسهم متجهًا للبيت، ثم دخل في فوضى مسرعًا، جعل أمه تضع فنجان قهوتها عن فمها في تعجب، لكن رجلها ما زالت معقودةً فوق الأخرى، ثم قالت في ثقل وجفاء:

– ماذا دهاك يا (خليل)؟ هل جننت أم مسك طائف من الشيطان لتدخل هكذا؟!

– أمي عفوًا، لكن وجدتها أخيرًا، وجدت ما كنتِ تبحثين عنه.

– ماذا وجدت يا ولد، لم أفهم قصدك؟!

– وجدت عروسًا جميلةً جدًّا يا أمي، وأحببتها وأريد أن أتزوجها.

– هكذا وبمنتهى السرعة: رأيتها فأحببتها وتريد أن تتزوجها؟! وكأنك ألغيت وجودي إذًا وجئت تعلمني فقط بقرارك.

– العفو يا أمي، ولكن ظننتك ستفرحين، ألم يكن حلمك أن تفرحي بي وتريني عريسًا وتحملي أحفادي؟

– بالطبع، لكن كل شيء بالأصول، دعني أسألك مَن هي؟ بنت

مَن؟ من عائلة مَن؟ موظفة براتب كبير؟ أم لديها ما سترثه؟ لها قرابة بأحد القادة والمسئولين؟ من إخوتها والذين بدورهم سيكونون أخوال أحفادي؟ وغيره من الأسئلة الأهم من شكلها ومن جمالها ومن ذهاب عقلك بها.

– لا أعلم كل ذلك، كل ما علمته أنها ابنة الشيخ (عرفة) صاحب كُتّاب تحفيظ القرآن الكريم في القرية، وأنها ما زالت تدرس في إحدى المدارس الثانوية.

– لم أكذب حينما قلت قد مسّك جن فأمسيت تهذي، تريد الارتباط ببنت الشيخ (عرفة) الكفيف الذي يتلقى إحسانًا من أهل القرية جراء تحفيظه الأطفال القرآن؟! وتريد أن تتحمل عبء مصاريف خطوبة طالبة ما زالت في الثانوية ومن بعدها حتمًا ستكون في الجامعة؟!

– لكن يا أمي.

– انس الأمر ولا تفاتحني فيه ثانيةً، بلا لعب أطفال!

نكّس (خليل) رأسه كعادته في كل مرة تحرجه أمه فيها، وتئد حلمًا لديه، فمن قبل كان حلمه أن يدخل كلية الحقوق ويصبح وكيلًا للنيابة مثل عمه سيادة المستشار (فاروق)، لكنها صممت أن تدخله شعبة (علم الرياضيات) ليلتحق بعدها بكلية الهندسة

بالرغم من كرهه للرياضيات، لكنه ما كان يجرؤ أن يرفض لها طلبًا، وأبوه كان أمام صلادتها كفرخ صغير ابتل من ماء المطر لا يستطيع أن يراجعها أمرًا حسمته، خاصةً وهي ما زالت تكسر نفسه وتلوي ذراعه بأنه قاتل ابنتها الوحيدة.

ظلّ (خليل) منكس الرأس جالسًا عند مصطبة الباب الكبيرة، ويعبث بعصا في يده يرسم منحنيات كثيرة، ثم يفرقها بخط مستقيم، حتى أفاق على صوت أبيه:

– ما بك يا (خليل) يا بني؟ لم تجلس هكذا؟

– أهلًا أبي، أبدًا، لا شيء، فقط متعب من الدنيا وما فيها، وكاره حتى لأنفاسي، أجد الدنيا وكأنها ثقب أسود في فراغ مظلم.

– يا الله! ولم كل هذا؟! بالتأكيد خسرت جولةً جديدةً مع أمك، وكعادتها قصفتك بلا هوادة، يا بني هل هذا جديد عليك وعلينا، لقد تعودنا منها ذلك.

– لكني كبرت يا أبي، كبرت وتعبت، ولم يعد بوسعي أن أتحمل ذلك، تعبت من قهرها وحرقها كل حلم أرسمه، وتحطيمها لكل هدف أحدده.

– يبدو أنك هذه المرة وقعت بأمر خطير وتعلقت بأمر كبير، هات ما عندك.

– وهل إذا جئت بما عندي ستساعدني، أكاد أشك في ذلك، أبي أنت أمام أمي لا تستطيع أن تومئ برأسك حتى ضد رغبتها، فدعني وشأني أكرمك الله.

– من الجائز بل من المؤكد أنني كذلك فعلًا، لكنك تعلم السبب، أنت تحملت كل قسوة أمك هذه طوال تلك السنوات الماضية حفاظًا عليك أنت شخصيًّا، حتى أوفر لك أسرةً متوازنةً ومتكاملةً الأركان.

– ليتك ما فعلت، بل ليتك ما التقيت بها ليلة وضعت البذرة التي نمت عني من الأساس، لقد حافظت على بيت أوهن من بيت العنكبوت.

– سامحك الله يا بني، سيأتي اليوم الذي تتزوج فيه وتنجب وتعي حجم تضحيتي.

– وكيف سأتزوج وأمي حية تسعى؟!

– هههه... تأدب يا ولد، مهما حدث تبقى أمك، هل الأمر إذًا بخصوص زواجك، ومن هي تعيسة الحظ التي دعت عليها أمها في ليلة قدر وأعجبتك وتريد الزواج منها؟

– وما الفائدة إن قلت لك وأمي رفضت وأغلقت الأمر؟!

– لنفكر معًا؛ فربما وجدنا مفتاحًا.

– أريد الزواج من (هديل) ابنة الشيخ (عرفة) محفظ القرآن الكريم.

– نعم النسب اخترت، رجل حامل لكتاب الله، وعائلته محترمة جدًّا بالرغم من فقره، لكن هناك قادة ومسؤولون كُثر يقربون له، فعندك مثلًا العميد (صالح) ابن عمه، واللواء (كمال) ابن خالة من اخترتها زوجةً لك، والنائب (شعلان) نائب مجلس الشعب السابق والعضو السياسي النشط، تستطيع أن تقول بأنه في مقام زوج عمة (هديل)، أليس اسمها (هديل)؟ والله اسم جميل وناعم وأنا شخصيًّا متفائل، لكن ماذا تعمل السيدة (هديل)؟!

– أبي كلامك محفز جدًّا ليتك تستطيع أن تقنع أمي ولو لمرة واحدة من أجلي إن كنت تحبني وضحيت لأجلي كما تقول، أما (هديل) فهي ما زالت طالبةً بالثانوية، أظن أن هذه السنة آخر سنة لها وستلتحق بالجامعة العام المقبل.

❁❁❁

دخل والد (خليل) الحاج (صابر) البيت، فوجد زوجته (ريّة) ما زالت تجلس في البهو الكبير أمام شاشة التلفاز، واضعةً رجلًا على رجل وفي يدها جهاز التحكم لإدارة التلفاز (الريموت كنترول) وفي اليد الأخرى تحرك بسبابتها ميدالية مفاتيح في حركات نصف دائرية، فابتلع ريقه بصعوبة وتنحنح، ثم أخيرًا قال:

– سلام عليكم.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، حمد لله على السلامة، لماذا جئت مبكرًا هكذا، ومعاد عودتك ما زال عليه نصف ساعة.

– تعبت قليلًا، فاستأذنت وخرجت من العمل مبكرًا.

– ما زال الغداء قيد التحضير، إن كنت جائعًا فاصنع لنفسك كوبًا من الشاي، وأظن أن هناك بقيةً في علبة الجبن التي فتحناها أول الأسبوع الماضي.

– أشكرك، لست جائعًا الآن، لكنني قابلت (خليل) على الباب وقد كان وجهه مصفرًّا وعيناه مختنقة بالدموع، هل حدث شيء؟!

– لا، لم يحدث، سوى أن ابنك الوحيد يريد توريطنا في خطبة بنت الشيخ (عرفة) الكفيف، وهي ما زالت طالبةً فنتحمل نحن مصاريف خطوبة وتجهيز ومواسم وهدايا، إلخ. في حين أننا في غنى عن ذلك، أكنا ننتظر تخرجه وتعينه بحكم أنه من أبناء العاملين في الشركة التي تعمل بها براتب كبير ليذهب فينفقه على بنت الأعمى؟!

– والله معك حق، كل الحق، لكن على ما أتذكر أن الشيخ (عرفة) يقرب للواء (عز الدين الأنصاري) الذي يعمل بجهاز المخابرات، وابن عمه العميد (شكري) الذي يعمل في جهاز الأمن الوطني، وأن هؤلاء ليس لهم أبناء وسمعت بأن جزءًا كبيرًا من

تركتهما ستنتقل للشيخ (عرفة) حيث أنه وريث من ضمن وارثين قِلّة، ناهيك عن فخر مصاهرة هؤلاء، لكن رأيك دومًا هو الصواب، فلا داع لهذه الزيجة طالما سترهقنا ماديًّا ولن نجد منها نفعًا.

– أنا لم أرفض تمامًا يا حاجّ، ولكن البنت ما زالت صغيرةً، فلينتظر حتى تدخل الجامعة، ثم بعد سنة أو سنتين نتقدم لنخطبها له، فيكون الأمر أهون والمصاريف أقل.

– كلامك صحيح جدًّا ومعقول، لكن هل تظنين أن بنتًا في جمالها وحسبها ونسبها ستنتظر كل هذا دون أن يخطفها غيرنا، ما رأيك لو نتقدم ونقرأ فاتحتها فقط، وبذلك نكون لم نتورط تمامًا في خطوبة وشبكة ولن نكون ملزمين بنفقة، وبعد ذلك وبمجرد ما تنتهي من دراستها الجامعية نقدم شبكةً رمزيةً ونعقد عليها لـ(خليل) وندخلهما معنا هنا في البيت، أما بقية العمارة فسنؤجرها ومن ريعها سنصرف –بالمعقول طبعًا– عليهما حتى تتوظف البنت وتتحمل مع زوجها مصاريفهما.

– والله كلام منطقي جدًّا يا أبا خليل، لكن نحن نظل كرماء ولن نقبل أن يعيش ابننا الوحيد من غير بيت مستقل؛ سنعطيهم الشقة الصغيرة التي تقسم الدور الذي فوقنا، وهي تكفيهم حجرتان بمنافعهما، ولكن سيكون أكلهما وشربهما حتمًا معنا، فأنا لم أربّ وأكبّر لتأتي هذه وتأخذ مني ابني خالصًا مخلَّصًا.

– إذًا، اتصلي على (خليل) وألقي عليه بالبشارة، وبإذن الله سيكون كل خير.

وهناك في بيت الشيخ (عرفة) وقفت (هديل) مع أمها في المطبخ تُعد أصنافًا من الحلوى والكعك، وعلى طرف شفتيها يتأرجح سؤال، وأخيراً حسمت أمرها وقررت أن تتكلم.

– أمي؛ لمن نصنع كل هذا الكعك والحلويات، من يرانا يظن أن لدينا حفل زفاف؟!

– والله يا بنيتي كل ما علمته من أبيك أن هناك ناسًا مهمين سيأتون لزيارتنا اليوم، وطلب مني أن نعد كل ما نستطيع من أصناف الحلويات، هذا غير الفاكهة التي أمرني بالأمس أن أحضرها من سوق الخميس وأجهزها، وطلب من (مُحي) أخيك أن يحضر صندوقًا من المياه الغازية معه، وعندما سألته ولم؟ ولمن كل هذا؟! قال سيأتينا ضيوف مهمون وتركني وذهب ليكمل حلقات تحفيظ القرآن.

– لعل خبرًا بالمال بعد قليل يصبح بالمجان، سنعرف بعد أن يأتي ضيوفه ويمضوا كل شيء، فلا داعي لنشغل بالنا، يمكن أن يكونوا أقاربه من ذوي السُلطات.

ثم مضت ساعات خرج الضيوف من (مندرة) مضيفة الشيخ

(عرفة) يتهلل وجههم السرور، ووقف (خليل) على مواجهة مع باب دار الشيخ (عرفة) علّه يظفر بنظرة من (هديل)، وبالفعل رآها تمر من غرفة تتجه لأخرى فلمحته، والتقت أعينهما في نظرة عميقة دافئة لكنها أرجفت قلبيهما، وخفق قلب (هديل) بشدة واحمرّت وجنتاها وعلتهما سخونة غريبة في منتصف شهر يناير القارس، أما (خليل) فبالرغم من شدة ارتباكه عندما رآها لكنه ظلّ يمتّع ويطيل النظر إليها وكأنها أشهى من أن يحرك نظره عنها دون أن يشبعه، فتحركت (هديل) متباطئةً وهي تخفض رأسها وترفع بصرها تارةً تجاه (خليل) ومشت على استحياء واضعةً طرفي بناني سبابتها والوسطى مجتمعين على فمها خجلًا.

(خليل) كان شابًّا طويلًا مفتول العضلات، عريض الكتفين واسع الصدر، تعلو صدره شعيرات كثيفة ظهرت من فتحتي أزرار قميصه العلوي، وقد شمرّ عن ساعدين خمراوين مفتولين، وعيناه عميقتان لونهما كالعسل الصافي، أهداب جفونه طويلة ومكتحلة دون كحل، أما حاجباه فكانا طويلين؛ احتضنا عينيه في اتساع وثقل، رائحة عطره كانت نفاذةً جدًّا، عبأت المكان وسحرت وجدان (هديل) عندما داعبت أنفها الرقيق وسرت بأنفاسها لتمتزج بروحها، فتسلبتها تلك الروح منذ تلك اللحظة لتذهب مع (خليل)، ما علمت كيف ولمَ (خليل) بالذات قد أسر روحها، ففي الحب تختفي الأسئلة وتذوب علامات الاستفهام والتعجب. إن القلب إذا ألقى

أمره بطل العجب وقُتِل العجاب.

ما شعرت (هديل) بنفسها منذ عانقت عيناها عيني (خليل)، ولا فاقت من ثملتها، إلا بيد أمها تحتضن كتفها وتقول لها:

– مبارك يا (هديل) لقد أتاك اليوم (عريس) من زينة شباب القرية، وأبوك وأخوك رحبا به جدًّا، وينتظران رأيك، ألا تتذكرين ذلك الشاب الذي طالما كان يضع على عِندك وأنت صغيرة، ولا يحلو له جلسة في حلقات التحفيظ دون أن يشاكس فيكِ، (خليل) ابن الحاج المهندس في شركة الكهرباء (صابر خليل) الثري الذي لديه عمارة على أول القرية، والذي فقد ابنته الوحيدة في حادث بشع منذ عدة سنوات بينما كان يحضرها من أحد الدروس، فدخلت سيارة نقل في سيارته الملاكي؛ فنجا هو وماتت ابنته –رحمها الله– وأمها وبالرغم من مرور تلك السنوات لا تزال ترتدي الأسود حدادًا، وتأبى أن تضحك، فما رأيتها بعد موت ابنتها ابتسمت قط، وقد حرمت على نفسها أفراح القرية، لا نراها إلا في التعزية فقط، وسمعت من نسوة في القرية أنها ما زالت تُحمّل (زوجها) ذنب وفاة ابنتها الوحيدة وتقهره بذلك، بل ويقولون أنها كانت عندما تغضب عليه ومنه تسبه وتقول له يا قاتل ابنتك... ما علينا من كل هذا، هل تذكرت الشاب يا بنتي؟!

– نعم يا أمي أتذكره جيدًا، وأعلم أنه شاب ناجح ومتميز،

وخلوق، وفي النهاية الرأي لأبي ولكِ.

– إذًا، سأعلن موافقتك بزغرودة.

❁❁❁

مرت السنوات سريعًا، أربع سنوات بالتمام والكمال؛ كانت كافيةً لتؤلف بين قلبي (خليل) و(هديل) وتذيب كافة العقبات التي حاولت أن تعرقل طريق حبهما.

(خليل) كان هائمًا بـ(هديل) للدرجة التي جعلته يعمل لساعات إضافية دون علم أمه؛ ليوفر بعض الهدايا لـ(هديل) طوال فترة الخطوبة، كانت هدايا رمزيةً كعروس المولد النبوي ذات الفستان التُلّي الزهري الكبير، والتي كانت عند (هديل) بكل مجوهرات الدنيا وحُلي الصاغة، لأنها كانت تعلم تمامًا أن (خليل) أتى بها خفيةً وخالف شُحّ والدته ليفرح قلبها هي ويدخل السرور عليها فتباهي نظيراتها من بنات القرية بهدية خطيبها كعادة البنات عندما يردن أن يفاخرن بعضهن ويظهرن أثر نعمة خطابهن عليهن وكأنهن في سباق مَن التي جاءها خطيبها بأفضل هدية.

ولم تكن عروس المولد وحدها الهدية الوحيدة؛ بل كان مُغلَّف الشوكولاتة بالبندق أساسيًّا كلما جاء إليها، ومن شدة فرحتها وحبها له كانت تخبئ الغلاف في صندوق صغير؛ على أمل أن تريه لصغارها

فيما بعد وتقص عليهم نبأ والدهم وأنه كان يعمل لساعات دون علم جدتهم حتى يستطيع أن يوفر ثمن تلك المغلفات والهدايا.

مرت السنوات، وحان وقت انتقال (هديل) لبيت (خليل) أو بمعنى أكثر دقة لبيت الحاجّة (ريّة)، تم تحديد موعد الزفاف، حددته الحاجة (رية) في منتصف شهر أمشير والذي هو معروف في مصر بعواصفه الشديدة ورياحه وزوابعه، وكأنها تريد ألا يحضر أحد الزفاف فيوفر ثمن المشروب، وبالفعل جاء يوم الزفاف باردًا قارصًا ممطرًا وراعدًا فلم يحضره سوى أقرب الأقرباء واكتفوا بإيصال العروس والتي تناست سوء الجو بدفء نظرات (خليل) ولمساته الحانية.

دخل العروسان عشهما الصغير، و(خليل) يكاد يطير من الفرحة، طوق عروسه بذراعيه واحتضنها بعينيه وضمها بقبلة دافئة عميقة من شفتيه، فذابت بين يديه، ليفيقا على طرق على الباب، فربت (خليل) على كتفي عروسه وقام بشد الغطاء عليها، وقام فارتدى ملابسه، وخرج ينظر من الطارق في هذه الساعة.

– افتح يا (خليل) افتح يا بني.

– أمي؟! خيرًا يا أمي!

– خيرًا يا بني، لكن يبدو أن المدعوين أنهوا على كل الطعام

الذي لدينا فلو أمكن أن تملأ لي هذه الصينية من عشائك، أعلم أن حماتك صنعت لكما ما لذ وطاب، أم أقول لك أفسح وسأدخل أنا وأضع ما يعجبني ولا داع لأتعبك في هذه الليلة.

واندفعت (رية) دون أن تنتظر جوابًا من خليل نحو المطبخ، وملأت الصينية التي معها حتى يبدو أنها أنهت على عشاء العروسين، وخرجت تصطنع ابتسامةً، وخليل واقف في بلاهة وصدمة.

– من الطارق يا (خليل)؟!

– أبدًا، إنها أمي يا (هديل).

ثم أشعل خليل سيجارةً، فقالت له (هديل) في نعومة وإشفاق، هل ستتدخن قبل أن نأكل شيئًا، أنا لم آكل شيئًا منذ الصباح وجائعة جدًّا، سأقوم لأحضر لنا العشاء.

ثم قامت (هديل) وارتدت ثوبًا يغطي ما شفت عنه ثياب نومها، واتجهت نحو المطبخ، فصُعِقَت ونادت:

– خليل؛ أين الحمام؟ لقد أعدت لنا أمي زوجين من الحمام، لا أجد منهما واحدًا؟!

– لقد أتت أمي، ويبدو أن الطعام لديهم نفد، وأنت تعلمين أن أبناء خالتي وأخوالي يبيتون عندنا منذ يومين ابتهاجًا لفرحنا، فأتت لتزداد لهم.

– حسنًا لا عليك، لنأكل من الإوزة، فلقد أعدتها أمي مخصوصًا وتم حشوها بالحبهان والمستكة و... أين الإوزة هي الأخرى؟!

– لقد زودت بها أمي، فهي تشتهي الإوز منذ فترة، وتريد أن تتذوقها وتتقاسمها مع أبي، وتترك الحمام لأخوالي.

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، حسنًا، لنأكل الفاكهة يا (خليل)، أحضر لي أبي التفاح الأمريكي الأحمر خصيصًا، والموز المغربي، فليكن عشاءنا خفيفًا.

– إن الضيوف بحاجة لتحلية، فأخذت أمي الفاكهة.

– إذًا، سأنام يا خليل، ولا داع للأكل، سأعتبر نفسي في صيام رمضاني صيفي طويل، تصبح على خير.

– هديل؛ إنها ليلتنا وإنني أحتاجك، انظري إليّ أرجوك، فعيناي عطشى لرواء عينيكِ.

– وأنا متعبة يا (خليل) ومنهكة حد الإعياء، وأريد أن أنام، تصبح على خير.

وفي الصباح، وعند الساعة التاسعة، تم طرق الباب بقوة وكأن من بالخارج على وشك القبض على (خليل) وزوجته، فانتفض (خليل) وارتدى بنطاله في عَجل وقام ليفتح الباب، بينما اثاقلت

(هديل) وكاد الحنق يفتك بها.

– مبارك يا حبيبي، أخوالك وخالاتك وبنات خالاتك، الكل يريد أن يُصبّح عليك، صباحية مباركة يا قلب أمك، أين عروسك؟! لا يمكن أن تكون نائمةً! نادها لتسلم عليهم قبل أن يسافروا، يا (هديل) أين أنت؟!

– ربنا يبارك فيكم يا أمي، (هديل) تأخذ حمامًا وستأتي، تفضلوا بالجلوس، وسأنادي عليها بنفسي.

ثم دخل (خليل) وهو يحاول أن يتمالك أعصابه، لينادي على زوجته التي قامت ممتعضةً ومستاءةً مما يحدث، ولولا حبها لزوجها ما خرجت ولا سلّمت ولا صافحت، ولكن ما باليد حيلة، قامت فاغتسلت سريعًا ولبست عباءةً ذات لون كريمي ناعم يشبه السكر المُذَاب، وبيدها طبق حلويات قدمته للضيوف فالتقته حماتها من يدها ليتخاطفه الجميع ويزدردوه في نهم وهم يضحكون ويقع الفتات على السجاد في لا مبالاة وبرود.

مرّ أول أسبوع سريعًا، وكعادة الأرياف يأتي أهل العروس بما لذ وطاب يوم السابع من الزواج، ويعيدون مباركة العروس، وقبل أن يصلوا بيوتهم عائدين كانت حماة (هديل) تصعد لزوجة ابنها بـ(سبت) ثياب غير نظيفة لتغسلها (هديل)، فتساءلت (هديل):

– أليس عندك غسالة (فل أتوماتيك) يا حماتي؟!

– بلى، ولكن لم يبق من مسحوقها شيء، وفيها عطل بسيط، فحتى يأتي عمك بفني صيانة، هل ستغسلين ملابسنا أم أذهب بها للجيران؟!

– لا، العفو، سأغسلها بالطبع.

ثم قامت (هديل) بغسل الثياب وتعطيرها، ونشرها، ثم جمعتها وقامت أيضًا بكيها وتطبيقها، ونزلت بها نظيفةً مكويةً لبيت حماتها، فوجدت حماتها تشرب فنجان قهوتها أمام التلفاز واضعةً رجلًا على رجل كعادتها، ولاحظت (هديل) قدرًا بطرف عينيها علبة مسحوق غسيل يبدو أنها مفتوحة ومأخوذ منها مرات قليلة فوق غسالة حماتها، فلما انتبهت حماتها لدخولها، ارتبكت قليلًا ثم قالت:

– لقد اشترى عمك مسحوق غسيل، لكنه نسي أن الغسالة معطّلة، تعالي يا (هديل) جئت في وقتك، فالمطبخ يحتاجك، هناك أواني الغداء صَعُب علي تنظيفها بعد الدهون المتراكمة عليها، وهي تحتاج ليدين قويتين مثل يديك، فادخلي اغسليهم، ثم هات من عندك مغلف من اللبن البودرة، وطبقًا من الرز، وكيسًا من السكر واصنعي لنا الأرز باللبن فعمك (صابر) يحبه كثيرًا، وأكثري من السمن البلدي على وجهه، رأيت في مطبخك قدرًا مملوءًا بالسمن البلدي فلا تكوني بخيلةً.

حاولت (هديل) أن تتمالك أعصابها، ودخلت وهي ساهمة كأن على رأسها الطير، تنفذ ما طلبته منها حماتها.

تكرر المشهد السابق كثيرًا في صور مختلفة، فمرةً تريد الحماة من كنتها أن تمسح لها بيتها كاملًا، ومرةً تعنفها وتهينها لو تأخرت في النزول لتعد الإفطار والذي غالبًا كان مكوناته مما كان يحضره المهنئون كعادة الريفيين لكنتها، حتى مرت الأيام ونفد ما لدى (هديل) وأصبح عليها أن تقدم المزيد والمزيد من التنازلات لحماتها لأن راتب زوجها كان يُدفَع كاملًا ليد حماتها وكانت هي المتصرف الوحيد في كل شؤون البيت.

حتى جاء اليوم الذي تأكدت فيه (هديل) من ثبوت بذرة زوجها في رحمها مكونةً ثمرةً في رحمها، وقد أخبرها الطبيب أن الجنين ولد، فكادت تطير فرحًا، فعادت للبيت، وصعدت لشقتها دون أن تمر على بيت حماتها كالعادة، ثم دخلت وتزينت فأحسنت تبعلها، وانتظرت (خليل) حتى سمعت صوت المفاتيح بداخل الباب فخرجت واضعةً يدها على بطنها وتعلو عينيها لمعة زادت وجهها وضاءةً وجمالًا، فقال (خليل) مداعبًا ومغازلًا وهو يكاد يلثمها بعينيه:

– ما الذي أوقف القمر هكذا؟!

– ينتظرك ليخبرك أمرًا يستحق أن تعطيه عنه مليون جنيه.

– خيرًا يا رب.

– مبارك يا (خليل) ستكون أبًا لصبي جميل يشبهك بإذن الله يا حبيبي، سيكون قرة عين لك، سندًا تشدد به أزرك وتشركه في أمرك، خاصةً وأنك وحيد.

– (هديل)؛ أنتِ حامل؟!

– نعم في أواخر شهري الرابع، ولم أكن أريد أن أخبرك ولم أذهب للطبيب، حتى تعبت وشعرت بضرورة الرجوع للطبيب، وبالفعل أمرني الطبيب بالراحة وعدم الإجهاد، خاصةً وقد نزل عليّ بعض الدم جراء مسحي لوالدتك بيتها منذ يومين.

– لا، لا، لا مسح ولا تنظيف ولا حمل ثقيل بعد اليوم، ارتاحي تمامًا ولا تتحركي، ولو على طعامنا سأعد لنا طعامًا خفيفًا، فأنا ماهر بالطهي منذ كنت في الجامعة.

– ولكن هل ستتركنا أمك يا (خليل)؟! هل ستدعني أرتاح كما تقول؟!

ثم ما أكملت (هديل) كلامها حتى فتح باب شقتها ودخلت الحاجة (رية) وعلى وجهها عبوس أهل الجحيم، تكاد تحرق (هديل) بنظراتها شذرًا.

– ما هذا الذي ترتدينه يا (هديل)؟! ألم أنبه عليك مرارًا وتكرارًا

ألا ترتدي ثيابًا حمراء مكشوفةً؟! هل ستظلين عاريةً هكذا طوال اليوم، ومتكاسلةً عن النزول وأطلع أنا ورجلاي لا تحملاني ألمًا إليك؟! ألا تشعرين على دمك قليلًا يا بنت الأعمى.

– أمي؛ هديل في بيتها وأنا اتصلت بها وطلبت منها أن ترتدي ذلك القميص الأحمر تحديدًا، ألن تباركي لنا؟! فهديل لم تنزل إلا لأنها متعبة والطبيب منعها النزول.

– وعلام المباركة يا عين أمك، يا سبع السباع؟

– هديل حامل بصبي، سيكون لي ابن من صلبي.

امتقع وجه الأم واختلطت بها جميع الأحاسيس، وظهرت على وجهها جميع الانفعالات في لحظة واحدة، حتى استقر الأمر لإظهار فرحة خبيثة وجاء ردها أخيرًا:

– مبارك يا بني، والله ما نهت عليها إلا خوفًا عليها من أعين الجن، خشيت أن يتلبسها جني كما تلبس ببنت عمتك (سهير)، فقد عشقها خادم السحر وجني من الجن السفلي –أعاذنا الله– لأنها كانت دومًا ترتدي ثيابًا مكشوفةً هكذا في بيتها ومن يومها وهي في حال غير الحال، لكن من الآن يجب على (هديل) أن ترتاح حتى تضع ابنك وحفيدي الوحيد.

مضت شهور الحمل في سلام، وكأن أم خليل قبلت بهدنة صلح

ترتاح فيها هديل ما تبقى لها من أشهر قليلة، حتى وضعت (هديل) طفلًا جميلًا يشبه البدر ليلة التمام، ارتسمت ملامحه بصورة تكاد تجعله نسخةً مُصغرةً من أمه...

وقديمًا قالوا على قدر ما يحب الرجل زوجته يأتي الوليد يشبهها، كان طفلًا ذا غمازتين في وجنتيه زادتاه حسنًا على حسنه ورثهما أيضًا عن أمه (هديل)، أما عيناه فكانتا واسعتين ورموشه تصل لحاجبين عريضين أخذهما هذه المرة عن أبيه، أما الأنف فكان دقيقًا وصغيرًا وذلك كان قاسمًا مشتركًا بين (هديل) و(خليل)، لكن نعومة شعره أخذها عن (هديل) فكان كثيفًا ناعمًا، في حين أخذ لون الشعر عن أبيه فكان شعره أسودَ كالليل...

كان وجهه وضيئًا بسّامًا وكأن الملائكة تضاحكه وهو نائم، وكان سمينًا نوعًا ما؛ مما جعل جدته لأبيه تخشى عليه الحسد فزملته ودثرته في لفافات كثيرة وخبأته عن العيون، ورفضت أن تظهره على الزائرين للتهنئة، بل كانت تعطيه لأمه ترضعه بصعوبة، فكانت ملتصقةً به بصورة غريبة؛ جعلت (هديل) تغار على وليدها من جدته...

سمته الحاجة ريّة (إبراهيم) ولم تدع الفرصة لخليل وزوجته لاختيار اسم ابنهما، مما زاد من حنق (هديل) ليس اعتراضًا على الاسم بقدر ما هو انزعاج من تدخل حماتها في أدق تفاصيل حياتها

منذ الوهلة الأولى، حتى جاء ما يطيب خاطر (هديل) قليلًا ويوفر أول لبنةً في صرح استقلاليتها...

جاء الخِطاب الذي كانت تنتظره منذ شهور وتمت الموافقة على تعينها مُعلِّمةً بإحدى مدارس القرية؛ ففرحت (هديل) جدًّا لهذا الخبر وقررت أن تخرج ثلث أول راتب لها للفقراء من جيرانها وثلثًا آخر ترسله لأبيها كعرفان منها بجميله أنه علمها ورباها فأحسن تأديبها، وتنفق الثلث الأخير في بيت زوجها.

علمت حماة (هديل) بخبر تعينها فشعرت بشيء من الفرحة حيث عرضت على (هديل) ألا تلحق (إبراهيم) الصغير بحضانة وأن تعطيها إياه كل صباح وهي ستعتني به حتى تعود، في البداية ترددت (هديل) في قبول عرض حماتها فهي كانت تريد أن تبدأ فعلًا في الاستقلال عن حماتها، لكن (خليل) أقنعها أن برودة الجو وإهمال الحضانات فيه خطورة على (إبراهيم) الصغير؛ بينما في حضن جدته سيكون في مأمن، فوافقت (هديل) مضطرةً ولكن شيئًا ما في قلبها لم يكن مرتاحًا لذلك.

ومرت الأيام والشهور، وجاءت الإجازة الصيفية؛ وما عادت (هديل) في حاجة للذهاب كل يوم للمدرسة، فلقد تم تقسيم العمل الصيفي بحيث ستذهب (هديل) أسبوعًا واحدًا فقط في الشهر، وكان بإمكانها أن تصطحب طفلها معها.

ثم بدأت (هديل) تأخذ أولى خطوات الاستقلالية؛ فغيّرت مفتاح شقتها بمفتاح آخر جديد من راتبها، وبدأت تقلل من مرات نزولها لبيت حماتها وتصطنع الحجج في ذلك بتعب (إبراهيم) أو إرهاقها من العمل نهارًا والسهر ليلًا بطفلها...

ثم بدأت (هديل) تدبر من راتبها وتدخل فيما يسميه المصريون (الجمعيات الشهرية) وهي وسيلة ممتازة للتدبير المالي، وتشتري منها أثاثًا جديدًا وتجدد فيما بلى من أدوات مطبخها، فباتت تبتكر أكلات أشهى وألذ، واشترت ثيابًا أنثويةً رقيقةً وجميلةً وعطورًا ساحرةً ومساحيق تجميل تزينت بها بلطف ونعومة مما جعل (خليل) لا يفارق البيت إلا قليلًا، حتى وقعت الطامة الكبرى!

طلبت (هديل) من (خليل) أن يكتفي بإعطاء نصف راتبه فقط لأمه ويعطها هي الباقي لتدبر به أمر بيتهما خاصةً وأنهما ما عادا ينزلان بيت والدته إلا قليلًا، اقتنع (خليل) بما قالته زوجته وقرر أن يعطي أمه ابتداءً من الشهر الجديد نصف راتبه فقط.

وعندما جاء يوم قبض (خليل)، اتجه نحو بيت أمه، فدخل وألقى السلام.

– وعليكم السلام ورحمة الله، ما عدت أراك إلا قليلًا، حتى (إبراهيم) منعتموني من رؤيته، مر يومان ولم أره فيهما بحجة أن زوجتك نائمة أو الولد نائم، أو زوجتك ذهبت لأمها، وكأن أمك لم

تعد في حساباتك يا (خليل) وأمتني حيّةً.

– العفو يا (أمي)، لكن والله فعلًا (إبراهيم) كان آخذًا التطعيم وكانت حرارته مرتفعةً ورجله اليمنى شبه متوقفة، فذهبت به أمه لجدته علّها تريحها قليلًا في حمله، ولعل جده (عرفة) يُرقيه.

– وهل كنت سأكل بحفيدي الوحيد، هل لو أتت به بنت الأعمى ما كنت لأحمله وأرقيه وأضعه في قرة عيني؟!

– حدث خير يا أمي، إنها لم تُرد أن تتعبك، وعلى العموم تفضلي هذا معلوم كل شهر وكل شهر وأنتِ بخير.

أمسكت أم خليل النقود والتهمتها بين أنمالها تعدها، ثم نظرت لخليل في استغراب، وقالت في تهكم:

– ما هذا؟ الراتب ينتقص النصف؟!

– أعلم يا أمي، لكن نحن منذ شهرين ونصف تقريبا وعدنا نأكل بمفردنا في بيتنا وما عدنا ننزل، فلذلك أرى أننا بحاجة للنصف وسأعطيك وأبي نصف الراتب كإيجار للشقة ومساعدة مني لكما.

– تمام يا بني كما تشاء والله يعينك ويقويك.

قالت (رية) ما قالته لكن ما أضمرته كان عكس ذلك فكان حديث نفسها مختلفًا فبدأت تحدث نفسها وتقول: «بدأت بنت الأعمى تبث سُمّها، وتأخذك وحفيدي مني، لكن هيهات لها ذلك

ولنرى من سيضحك في النهاية.»

انتظرت (رية) حتى اطمأنت أن ابنها صعد، وأن زوجها ليس في البيت، وأتت بالهاتف المحمول واتصلت برقم يبدو أنه كان ملفوفًا في ورقة قديمة ومطوية بإحكام في صندوق تحتفظ هي فيه بالأشياء المهمة، فجاءها الرد من الاتجاه الآخر:

– وعليكم السلام والأمان، نعم، وعلى العهد ما زلت باقيًا، شرفيني بزيارة تنالي البشارة.

وفي صباح اليوم التالي، انتظرت (رية) حتى اطمأنت أن ابنها قد خرج، وصعدت وهي تعلم أن زوجة ابنها بالأعلى، فطرقت الباب، ففتحت (هديل) فسلّمت عليها حماتها واحتضنتها على غير عادة وقبلتها، وهديل مذهولة، ثم رحبت بحماتها وقالت لها تفضلي.

قالت الحماة لن أطيل عليك يا بنتي لكن غطاء رأسي الأسود وقع عليه كلور، وأنا في حاجة لغطائك لأن لدي مشوارًا مهما، فلو ممكن تعطيني إياه وسوف أعيده إليك مغسولًا ومكويًّا بمجرد عودتي أكون شاكرةً يا بنتي.

استغربت هديل جدًّا من لطف حماتها، وأمام هذا اللطف لم تجد مانعًا من أن تعيرها غطاء رأس أسود خاصةً وأن هديل لديها اثنان، فشكرتها حماتها وخرجت وعلى وجهها ابتسامة خبث لم

تستوعبها (هديل) بعد.

خرجت (رية) واتجهت بفورها لأول الشارع واستقلت (توكتوك) وقالت له عزبة المقابر إذا سمحت، عند الشيخ (أبو نوار).

التفت سائق (التوكتوك) في ذهول واضطراب وتردد إلى (أم خليل)، لكن صيحةً قويةً منها له جعلته يضغط على محرك الوقود وينطلق وهو يتمتم بآيات المعوذتين وآية الكرسي.

نزلت أم خليل من (التوكتوك) بعد عراك شديد وتهديد ووعيد حيث كانت تريد أن تعطيه جنيهين اثنين فقط لا غير أجر مشوار نصف ساعة ناهيك عن المطبات التي جعلت صاحب الـ(توكتوك) طيلة الطريق يلعن أم خليل والشيخ أبو نوار بل ويلعن اليوم الذي عمل فيه على (التوكتوك) من الأساس.

وبعد عراك وخناق شديد أخذ السائق جنيهًا ونصفًا زائدًا فقط على الجنيهين بعد أن رفضت أم خليل وحلفت برحمة ابنتها ألا تعطيه ربع جنيه آخر زيادةً عن الثلاث جنيهات ونصف، فأخذهم الرجل وهو يتمتم ويسب ويغمغم بدعوات ولعنات وانطلق معفرًّا بالتراب في وجه أم خليل التي رمته بأبشع السباب.

توجهت أم خليل نحو بيت الشيخ أبو نوار الدجال، فوجدت زحامًا نسائيًّا شديدًا وثرثرةً بين النسوة؛ فتلك تحكي عن قوة الشيخ

الدجال الذي رد ابنتها المطلَّقة لزوجها بعد يوم واحد من الطلاق، وتلك التي استطاعت أن تؤدب جارتها وتخرسها بعد أن رشّت لها السحر على باب بيتها فلم تعد تخرج تضايقها، وهذه التي جعلت سلفتها تكره بيتها وتسب حماتها وتطلب الطلاق وبالفعل وبقوة سحر الشيخ أبو نوار ارتاحت للأبد من منافستها الوحيدة، وأخرى ما زالت في رحلة العلاج مع الشيخ وكل ما تتمناه طفلًا يناديها بأمي.

ظلت أم خليل تستمع لثرثرة النسوة حتى انتبهت لاسمها يُنادى عليه أن تدخل، فدخلت وأطرافها ترتجف ودقات قلبها تكاد تقفز به خارج حنجرتها فحاولت ابتلاع ريقها ورمت السلام.

– وعليكم السلام والأمان يا حاجة أم خليل يا رية يا بنت سليمة، تفضلي ولو إن الأسياد في غضب شديد لتأخرك عن زيارتهم كما وعدت آخر مرة.

– اعذرني يا شيخ وليصفح عني الأسياد؛ فلقد انشغلت بزواج ابني الوحيد، لكني ما زلت على العهد، وآتية وكلي أمل ألا يرفضوا لي طلبي وهم الأعلى والأكرم مني.

– هاتي ما عندك يا (رية) هل تريدين تجديد السحر القديم؟ أم عمل آخر جديد؟

– بل أريد عملًا جديدًا يخلصني به الأسياد من غريمتي التي

جاءت لتشاركني ابني الوحيد، بل وتخطفه مني وتريد أن تحرمني من حفيدي الذي طالما انتظرته وتستأثر به لنفسها، فهل يرضي الأسياد ذلك؟ إنني لا أريد إلا ابني وحفيدي ولتذهب بنت الأعمى للجحيم.

– فهمنا قصدك ولك مرادك، لكن هل جئت باسمها واسم أمها وشيء من طرفها؛ لنتمكن من تحقيق ما تتمنين؟ وقبل كل ذلك هل ستضعين أجر ذلك ألفين من الجنيهات إكرامًا للأسياد أم ستتعبين قلبي ككل مرة في فصال وجدال؟!

– ألفان؟!

– نعم يا رية؛ أنت تريدين ابنك وحفيدك لك خالصين، وهذه طلبات الأسياد لا طلباتي، هل ستدفعين أم تقومي وتفسحي الوقت والمكان لمن بعدك؟!

– الأمر لله؛ سأعطيك الآن ألفًا وبعد نجاح العمل ألفًا أخرى.

– لا، الأسياد تأمرني بألفين الآن وألفًا أخرى بعد نجاح العمل، فما رأيك؟

– لكن هذا كثير يا شيخ أبو نوار، ما عهدت ذلك من الأسياد، كلمهم يكرموني قليلًا، وسأعوضهم عند تجديد السحر كل ميلاد قمر جديد.

– الأسياد وافقت يا (رية)، فهاتي ما طلبت.

– اسمها هديل بنت صفية، وهذا قطرها غطاء رأس، هل يكفي؟!

– نعم يكفي، انتظري دقائق في الخارج وسأنادي عليك.

خرجت أم خليل وهي تحاول أن تتمالك أعصابها التي كادت تفقدها من الخوف تارةً ومن النقود التي ستدفعها مرغمةً تارةً أخرى، ثم جلست وأسندت رأسها على الحائط اللبني وطلبت كوب ماء من خادم الدجال فجاءها بكوب ماء من (زير) وهو إناء فخاري كبير يُوضَع فيه الماء، فشربت وارتوت وهدأت قليلًا.

وما لبثت إلا وسمعت باسمها مُكنًّى يُنادى عليها من جديد، فقامت ودخلت على الشيخ، فأمرها لتجلس فجلست، ثم أعطاها قارورةً فيها سائل أحمر وطفق يشرح لها كيف ستستخدمه: ستضع منه على مشروب وتسقيه لمن عليها العين والنية (هديل بنت صفية) وبقية السائل ستضعه على بعض الماء وستنثره على عتبة باب المذكورة في ليلة تمام البدر، ولكن حذار أن تراها فيبطل المفعول.

فسألت أم خليل:

– ولكن، لو خطى ابني العتبة هل سيُؤذَى بذلك السحر؟!

فأجابها الدجال أن عيب عليها أن تسأل كهذا سؤال، والسحر معمول باسم وشيء من طرف المقصودة بعينها (هديل بنت صفية)

فلو تخطى السحر الآلاف من الرجال ما ضر إلا ما كان عليه الخاطر والبال.

ومع ميلاد شهر عربي جديد، يستوجب على أم خليل أن تأتي مع بزوغ أول هلال لتجدد العهد، وستُسَرُّ بالنتائج.

انطلقت أم خليل وبين يديها قارورة السحر تحافظ عليها أكثر ما تحافظ على روحها، وأخيرًا قررت أن تخبئها بين سحرها وثديها، وشاورت بأنمل سبابتها لتوكتوك جديد فركبته وانطلقت نحو بيتها تعلو وجهها ابتسامة خبث تكشف عن أسنانها الصفراء.

في اليوم التالي.

أعدت أم خليل أكوابًا من العصير وخرجت من الباب، وظلت تنادي على زوجة ابنها لتأتي لتشرب العصير المثلج معها، وعندما لم يأتها جواب، حملت صينية العصير ووضعت غطاء رأس (هديل) بجانب الأكواب مطبقًا وقد عطرته بقليل من معطر الغسيل وكأنها غسلته وهو في الحقيقة لم يتذوق ذرة ماء، وصعدت فطرقت باب بيت ابنها ففتحت (هديل) ويبدو أنها كانت نائمةً فاستيقظت على طرق الباب.

دخلت أم خليل ووضعت صينية العصير على المنضدة الصغيرة الملحقة بكراسي الاستقبال، وجلست وادعت أنها جاءت

تشكر هديل على غطاء الرأس وتشرب معها العصير.

استغربت (هديل) بدايةً لكنها لم تشك لحظةً في المصير الذي ينتظرها، بل فرحت في بلاهة وبراءة وقالت في نفسها ربما شعرت حماتي بقيمتي بعد أن ابتعدت وجاءت تشتري ودي بعد أن أصاب بيتها العفن بعدما كنت يدها ورجلها في تنظيفه وترتيبه وتدبيره.

قدمت أم خليل لهديل كوب العصير فأخذته هديل وشربته دفعةً واحدةً، وقالت:

– صحوت من نومي والعطش يقتلني، وكوب عصير الليمون هذا جاء في وقته حقيقةً؛ فشكر لك يا حماتي.

– العفو يا بنتي، مسرى العافية، أتركك تكملين نومك وأنزل أنا لأن عمك أبا خليل على وصول ويجب أن يجدني في البيت.

بعد يومين، بدأت (هديل) تشكو من ألم شديد أسفل ظهرها، وأنها ترى أحلامًا مزعجةً بل كوابيس، ترى فئرانًا سوداء وقطةً سوداء أكبر ومع ذلك القطة لا تأكل الفئران بل تصطحبهم لتدخل بيت (هديل) وأن عنكبوتًا كبيرةً سامةً بشعة المنظر تكاد تكون في منظرها أقرب للعقرب تحاول أن تقرص (هديل) وبالفعل تقرصها في يدها اليمنى.

تقوم هديل ويدها تؤلمها جدًّا وتتصل بأمها وتخبرها بسوء ما

رأت؛ فتطمئنها أمها وتنصحها بقراءة المعوذتين قبل أن تنام، وأن تأتي لأبيها كي يرقيها وتعدها (هديل) أن تأتيهم يوم الخميس ليرقيها أبوها وتبيت معهم ليلتها.

أصبحت (هديل) أكثر ثقلًا وباتت تنام أكثر من قبل، حتى بدأ (خليل) يدخل فيجد (إبراهيم) مفطورًا من البكاء وهديل نائمة لا تشعر به، فكان يوقظها وينبهها أن (إبراهيم) جائع ومرةً يحتاج ليغير حفاضه، حتى انفجر (خليل) ذات مرة في وجه (هديل) وبدأ يسبها لأول مرة ويتهمها بالإهمال والكسل، فبدا (خليل) في عيني (هديل) وكأنه ابن برص أسود ضخم كبير.

أخذت تنظر له وتصرخ بأعلى صوتها، فجاء الجميع يطرقون الباب خشية أن يكون هناك ما أصاب من بالبيت، فشكى (خليل) لأبيه وأمه والجيران ما يحدث من أول الأسبوع، وكان اليوم هو الأربعاء من الأسبوع، وأنه قد تعب وملّ من كسل زوجته وتغير حالها، وأما عن صراخها فهو تمثيل لما واجهها بإهمالها.

حاول الحاج (صابر) والد خليل أن يقترب من (هديل) ليربت على كتفها ويهدأ من روعها ويسألها عما بها، لكنها ظلت تصرخ بأعلى صوتها وتحتضن في طفلها وهي تنظر بعين يملأها الخوف وغموض غريب باتجاه (أم خليل).

وهنا كانت الصاعقة حيث انتشلت بصعوبة (أم خليل) الطفل

من بين يدي أمه؛ بحجة أنها ليست أمينةً عليه وهي في حالتها تلك، وأخذته من حضنها فزاد عويل وصراخ (هديل) واشتد نشيجها ونحيبها وباتت تهذي بكلام غير مفهوم.

وهنا اتصل (خليل) بأخ (هديل) ليأتي ويأخذ أخته؛ فيبدو أنها جُنّت أو التبس بها جنيّ، وهو لا يقدر عليها وحده وهي في تلك الحالة، خاصةً والناس بات يزعجهم صراخها.

جاء (مُحي) أخو (هديل) ليأخذها، فوجد أخته تبكي وتصرخ وتنظر لابنها، وكأن لسانها معقود، ولكنها ظلت تشاور على ابنها تريده، لكن أخاها قام بتكتيفها بمعاونة زوجها وكمموا فمها ونزلوا بها ليأخذها لبيت أبيها، وهناك كان الأب المريض ينتظر ابنته.

أمسك الشيخ (عرفة) بناصية ابنته التي كان من الواضح أن الصراخ أنهكها حد الإعياء، وبدأ يتلو ما تيسر له من آيات القرآن الكريم، حتى وصل لسورة الصافات تحديدًا ففاقت ابنته وهي تشكو من صداع وألم فظيع برأسها...

هدّأ الشيخ الضرير من روع ابنته وناولها كوبًا من الماء البارد قد قرأ عليه آيات الرقية الشرعية، فما أن تجرعته (هديل) حتى تقيأت فزادها الشيخ كوبًا آخر فظلت تتقيأ حتى شعرت وكأنها تُولَد من جديد وشعرت بخفة وراحة غريبة وكأنها لم تشك شيئًا، سوى ما بقي معها من بحة في صوتها جراء الصراخ وإنهاك شديد جعل

والدتها تمسك بذراعها متلطفةً وتسندها لتدخل فتغفو قليلًا.

بعد ذلك بدأت (هديل) تسأل عن ابنها (إبراهيم) الذي افتقدته، وبدأ ثديها يدر حليبه حنينًا لطفلها الذي لم يُفطَم بعد، فطمأنتها أمها أنه بخير مع جدته أم خليل، لكن (هديل) رفضت أن تبات ليلتها بعيدةً عن ابنها وذلك الوخز يكاد يفتك بضرعها حنينًا لطفلها، فطلب والدها من أخيها أن يأخذ أخته ولا يتركها إلا بعد أن يطمئن عليها في بيتها.

وصل (محي) لبيت الحاج صابر ومعه أخته المنهكة حد التعب، وما أن وصلا حتى كان صراخ (إبراهيم) يفتك بصدر (هديل) التي نزلت من (التوكتوك) كحمامة فتح القفص عنها توا، فانطلقت نحو الباب تطرقه بكلتي يديها، ففتح (خليل) وقبل أن ينطق كلمةً واحدةً كانت (هديل) مرقت للداخل كالسهم والتقطت طفلها وألقمته ثديها ودموعها تنزل كسياط ساخنة تجلد وجنتيها، وهي تتشمم وليدها وتقبله في جبينه مرةً وفي راحة يده الصغيرة مرةً أخرى؛ فهدأ الصغير ونام ونامت (هديل) هي الأخرى على كنبة البيت الكبير دون أن تدري بنفسها.

وأما عن حماها الحاج (صابر) فحاول أن يمسك في (محي) ليبات ليلته معهم لكنه اعتذر لحاجة والده المريض إليه، وقال (محي) أنه سيمر صباحًا ليطمئن على أخته، بينما وقفت أم خليل

والغيظ يأكلها، ولم تنطق ببنت شفة، ولكن يبدو أنها لم تفقد الأمل كليًّا في تملك ابنها وحفيدها والذي طالما سولت لها نفسها أنه عوض القدر عن ابنتها التي ماتت...

بل إنها كانت كثيرًا تتخيله بنتًا وليس ولدًا وتحادثه كبنت مما كان يثير حفيظة (هديل)، وكثيرًا ما كانت تبدي اعتراضها على ذلك وتنبه حماتها أنه من الخطأ أن تنادي الطفل بصيغة المؤنث وتحادثه كأنثى؛ فإن ذلك يؤصل التخنيث لدى الطفل، وكثيرًا ما كانت أم خليل تتبادل العراك مع (هديل) وينتهي الأمر بسباب (هديل) ونعتها بأسوأ الصفات.

في الصباح استيقظت (هديل) ورأسها مثقل جدًّا، ولكنها استغربت أنها في بيت حماتها، وبينما هي تحاول استيعاب الموقف واسترجاع الأحداث دخل الحاج (صابر) وألقى التحية عليها، فردت عليه السلام في رقة، فسألها عن حالها وعن حال (إبراهيم) فطمأنته أنهما في أفضل حال، فسألته إن رغب في الإفطار فتجهزه له فشكرها وقال أنه غالبًا ما يفطر بكوب شاي وقطعة كعك، وطلب منها أن تقوم فتجهز لنفسها إفطارًا وتعطه (إبراهيم) حتى تحضر الإفطار لها ولزوجها.

فأعطته (إبراهيم)، فسمى عليه وأخذه فقبله في جبينه، بينما طلبت هي أن تصعد لتحضر الإفطار في بيتها، فلم يجد الحاج

(صابر) بدًّا من أن يتركها على راحتها؛ خاصةً بعد الليلة العصيبة بالأمس وربما تحتاج لتتحمم وتغير ملابسها فلم يرد أن يحرجها.

استيقظت أم خليل فوجدت زوجها يداعب حفيده في (القراندة) الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة، فأمعنت النظر لهما طويلًا حتى ذهبت هناك، إلى الزمن منذ عشر سنوات عندما كانت ابنتها الوحيدة تقريبًا في نفس عمر حفيدها.

كان الحاج (صابر) يحب ملاطفتها ومداعبتها كل صباح في (القراندة) وكان خليل يأتي بألعابه ليجلس فيلاعب أخته الصغيرة، وكانت تأتي هي بشطائر الجبن وأكواب الشاي، فتفطر الأسرة الصغيرة معًا دون أن يفرقها شيء، حتى جاء اليوم المشؤوم وكانت الحادثة البشعة فنجا زوجها وماتت طفلتها ذات الأربع سنوات حينها، عندما كانت خارجةً من أحد دروس التأسيس...

وفجأةً امتقع وجه أم خليل وبدأت نفسها تصرخ بداخلها نجا هو وماتت هي، كان بإمكانه أكيد أن ينجيها لكنه بالتأكيد آثر نجاته وأمات طفلته، ثم بدأت تدمع عيناها وهي تنظر إلى (إبراهيم) وتقول: لكن الآن عادت لي ابنتي من جديد ولن أسمح لأي مخلوق أن يفرق أسرتي ويأخذ أحد منها ولو كلفني ذلك حياتي.

وتذكرت أم خليل السحر المتبقي في قارورة السحر فدخلت ونظرت للتقويم الهجري، فوجدت أنه بقي على تمام البدر تقريبًا

يومان، ستكون هي فيهما دبرت كيفية رشّ ما تبقى من السحر أمام عتبة ابنها لترحل عنها زوجة ابنها ولكنها يجب أن ترحل هذه المرة بلا رجعة.

في الظهيرة مرّ (محي) على أخته ليطمئن عليها، وبينما هو جالس في بيت أخته إذ رنّ هاتفه وكانت المُتصلة (أمه)، فقام (محي) مذعورًا وهو يردد:

– مسافة السكة وسأكون عندكم، ضعي حبة القلب تحت لسانه يا أمي وافتحي النوافذ أرجوك ولا تخافي، سيكون كل شيء بإذن الله على ما يرام.

– خيرًا يا (محي)؟ ماذا حدث طمئني؟!

– أبي جاءته نوبة القلب ويجب أن أعود للبيت حالًا يا (هديل)، كوني بخير أرجوكِ.

– انتظر، سأرتدي إسدالي وسآتي معك.

انطلق الأخوان، وما إن وصلا البيت حتى كان النواح والعويل يملأ البيت، كان اللون الأسود يغطي كل شيء، كانت الخراف الصغيرة التي كان الشيخ الضرير يربيها نائمةً أرضًا منكَسةً رؤوسها كأنها مريضة لكن من دون مرض...

كان هناك غيوم سوداء تحيط بدار الشيخ المريض تعلن عن

مطر قريب، مطر في شهر أغسطس! إنه أمر غريب! ظلت هذه الغيمات تعانق نعش الشيخ (عرفة) حتى توارى تحت التراب، مات الشيخ (عرفة) الذي طالما فتح داره لتحفيظ وتلاوة القرآن الكريم، مات وهو يصحح أحد الألواح لطفل صغير.

حاولت (هديل) أن تستوعب موت أبيها، حاولت أن تبتلع غصة الفراق، دخلت فتلمست مكان جلوسه، لم تصدق أنها ستدخل البيت ثانيةً ولن تجده يجلس على كرسيه الكبير، لن تشم رائحة المسك من يده عندما تقبلها، رأت عكازه يقف وحيدًا وكأنه يبكي هو الآخر فراق شيخه في ركن الغرفة.

رأت جلبابه مطويًّا على رأس سريره وكأنه فقد روحه مع فقد شيخه، كأن هذا الجلباب كانت له روح بالفعل، لكنها كانت موجودةً فقط بوجود الشيخ، وذهبت مع ذهابه، رأت نعليه فأمسكت بهما وأخذت تقبلهما، هذان النعلان اللذان طالما حملاه لصلة الأرحام وإطعام المساكين والسؤال عن الجيران والدخول عليها كل عيد بالرغم من عجزه.

من سيدخل عليها بعد ذلك كل عيد؟! من سيتذكرك يا (هديل) بالسؤال ويؤثرك بالدعاء ويحتويك، من سيكون سندك وظهرك؟

إنا لله وإنا إليه راجعون، ظلت (هديل) تقولها وتنتحب في نشيج وبكاء حتى كادت روحها تفارقها وتلحق بأبيها.

أفاقت (هديل)، وجدت نفسها ممددةً على سرير أبيها وبجوارها غرابيب سود يثرثرن وتلتوي شفاههن في حركات تومئ بالتصعّب والشفقة عليها، وبينهم يقف طائر أبيض بيده ورقة وقلم وحول رقبته سماعة، وكأنه بدأ لتوه في إلقاء نصائح وتوصيات هامة لأمها وأخيها، ثم غاب ذلك الطائر الأبيض وبقيت الغرابيب، حتى أشار أخوها إليهن بالانصراف كي ترتاح (هديل)، التي يبدو أنها فقدت القدرة على الكلام بشكل مؤقت، ولم يتحرك منها سوى سيول من الدموع الساخنة باتت تجلد خديها، أما بصرها فظل شاخصا متجها لأعلى الغرفة ثابتا على نقطة بمنتصف سقفها.

قال الطبيب أن (هديل) تعاني من حالة انهيار عصبي لكنه ليس شديدًا بأية حال، وأنها ستتعافى خلال أيام قليلة، لكن عليهم ألا يثقلوا سمعها بكلمات الموت وفراق أبيها، كتب لها بعض المهدئات العصبية وأعطاها حقنةً وطلب أن يتركوها لترتاح.

كانت أم خليل تراقب كل ما يحدث في صمت، ثم جاء صوتها أخير يقطع الصمت ويقول:

– يجب أن نأخذ (إبراهيم) بعيدًا عن هذا الجو الكئيب.

– لكن يا أم خليل، إبراهيم ما زال يرضع ثم أن أمه روحها فيه، وأخذه وهي في هذه الحالة قد يسيء من حالتها.

– إبراهيم أوشك يتمم العامين، ولن يحدث شيء لو فطمناه يا أم مُحي، ثم إن حليب الحزن والنكد لن يفيده بل قد يضر الولد ويمرضه.

نكّست أم (محي) رأسها قليّلا ثم نظرت إلى ابنها وكأنها تستطلع رأيه؛ ففطن الابن لنظرات أمه وقال:

– الحاجّة أم خليل معها حق يا أمي، إبراهيم سيكون في جو أفضل في بيت جده وجدته، خاصةً وأمه في هذه الحالة.

صُعِقت (أم محي) من رد ابنها، بينما ابتسمت (أم خليل) ابتسامة خبث كشفت عن أسنانها الصفراء، وقامت فانتشلت الطفل النائم في حضن أمه، وضمته لصدرها وأخذته وهي تدعي الحزن، وانصرفت.

ظلت (هديل) تعاني من صدمتها لوفاة والدها طويلا، ومما " زاد الطين بلة " أنها أفاقت فلم تجد ابنها، ولما حاولت أن تستفهم بالإشارة عنه، ادّعي أخوها عدم الفهم، بينما ظلت أمها تبكي وتنتحب دون أن تجيب ابنتها بكلمة واحدة رغم أنها تفهم كل إيماءة من الإيماءات التي تتساءل بها ابنتها عن وليدها.

ومع تجاهل الاستفهامات زاد النحيب، وزادت (هديل) في الصراخ والبكاء، فما كان من أخيها إلا أن يقول أن أخته التبسها

جني وأنه سيحضر شيخًا ليخرج العفريت الملتبس بجسد أخته، أيده في ذلك زوجها (خليل) والذي أكد أن (هديل) من قبل وفاة أبيها وتصرفاتها مريبة، وأن فقدانها القدرة على النطق لم يكن أبدًا إثر صدمتها لوفاة أبيها بل هو انعقاد لسانها بسبب الجني الملتبس بها.

وبالفعل أحضر خليل ومحي دجالًا يدعي أنه يعالج بالقرآن، وبدأ يقرأ آيات القرآن بصوت مرتفع مما جعل (هديل) تصرخ بصوت عال، فأخذ الدجال يضربها ويقول وكأنه يوجه الخطاب للجني الملتبس بها:

– اخرج عدو الله، لقد حذرناك وأنذرناك ونعوذ بالله من أذاك.

ظل الدجال يردد تلك الكلمات، وبيده خرطوم صغير، كلما صرخت (هديل) يطلب من زوجها وأخيها أن يكتفاها ويشبعها ضربًا بالخرطوم البلاستيكي، حتى غابت (هديل) عن الوعي؛ فخشي الدجال أن يُفتَضَح أمره فقال في نبرة اليائس وهو يهز رأسه:

– هذا الجني، عشق الجسد، وإنه من خدام الجن السفلي ولن أستطيع عليه.

– ماذا يعني ذلك يا شيخ؟! هل معناه أن تظل (هديل) على هذا الحال طيلة عمرها؟!

– العلم عند الله يا بني، لكني فعلت ما بوسعي أن أفعله،

وصدقني لن يفعل أحد أكثر مما فعلته أنا، فاستعوضوا ربكم.

لم يفهم أحد حجم المصاب الذي وقع على (هديل) بفراق أبيها، لقد كان تعلق (هديل) بأبيها يفوق أي تعلق لبنت بأب، فقد كان الشيخ الضرير صديقًا لابنته، بل كان مدللها، كان سندها، ما كان أحد ليتجرأ أن يحزنها أو يضايقها وهو موجود، خالف كل أعراف القرية وتحمل ثرثرتهم وتركها تكمل تعليمها وتتزوج بمن اختاره قلبها، لم يجبرها يومًا على شيء، رباها على العز والترف قدر ما كان يُتَاح له، لم يحرمها أبدًا من شيء، لم يكن يمر يوم إلا وكان يتصل بها مرةً ومرتين ليطمئن عليها.

كان وجود الشيخ (عرفة) بمثابة صمام الأمان وهالة البركة التي تحيط (هديل) بدعواته، كانت تستمد القوة من وجوده بالرغم من عجزه، كانت تشعر وأن جند الله كلهم اجتمعوا في شخص أبيها، فمع ذهابه ذاقت مرارة الفقد، شعرت بكسرة الظهر، وغياب البركة، وانعدام السند؛ فكان هول ذلك كله عليها كافيًا ليذهب بعقلها لا بطلاقة لسانها فقط...

مع الأسف، لم يفطن الأخ الجاهل ولا الزوج السلبي لذلك، بل اتجهوا لطريق الدجل والمشعوذين فما سمعوا بمعالج هنا أو فاتح لكتاب السحر هناك إلا وذهبوا إليه، وأهملوا الأدوية التي كان الطبيب قد كتبها لهديل؛ ظانين أن هذه الأدوية ستسبب لها الإدمان

وستكون سببًا في تدهور حالتها، ظلت (هديل) تتجرع كؤوس العذاب ضربًا من هذا الشيخ، وتعذيبًا من الآخر وكلٌ بات يجرّب فيها حتى أُنْهِكت قواها، وكلما أفاقت تشير وتتساءل في إيماءات استفهامية عن ضناها، عن طفلها الوحيد (إبراهيم) لكن، لا مجيب!

ظل الأمر هكذا شهورًا، إلا أن جاءت الصاعقة الكبرى والطامة العظمى، ورقة طلاق (هديل).

طلّق خليل (هديل) تحت ضغط شديد من أمه، التي ظلت تهدده بأنها ستغضب عليه بقية عمره، وتارةً تستجديه وتستعطفه بأن يرحم الطفل الصغير ابنه من أم مجنونة، نعم صارت لهجة الحماة وزوجها الذي انضم لحزبها ولم يكن قادرًا كعادته على معارضتها بأن (هديل) جُنَّت ويجب ألا تربي (إبراهيم) ولا أن تبقى على ذمة خليل لحظةً واحدةً، ومع تكرار الزن وقديمًا قالوا الزنّ على الأذن أمرٌ من السحر، انصاع خليل لرغبة والديه وطلق (هديل).

عندما تسلمت (هديل) ورقة طلاقها؛ كأن جزءًا من وعيها بدأ يعود ويتسرب إليها رويدًا رويدًا، ولأول مرة منذ شهور انفكت عقدة لسانها في وهن وقالت:

– ابني، أريد ابني يا أمي.

ردّ أخوها في تعجرف:

– وهل سنربي لهم ابنهم، والله ما يحدث ذلك أبدًا؛ اتركيه لهم، وسيأتيك من هو خير من خليل وستنجبين من هو أفضل من (إبراهيم)، لكن طالما طلقك وأنت في مرضك هكذا، لن نربي له ولده.

بكت (هديل) وانتحبت وزاد نشيجها، ولكن لم تستطع الأم أن تعارض ابنها ولا أن ترد لبنتها طفلها، بل كل ما استطاعت أن تفعله أن ازدادت بكاءً على بكاء ابنتها.

وفي يوم من الأيام تسللت (هديل) خفيةً، وخرجت تجري حافية القدمين متجهةً نحو دار حماتها والتي تبعد عن بيت أبيها بما لا يقل عن 3 كيلو مترات، أخذت (هديل) تركض بعزم ما فيها من قوة، وما إن وصلت دار حماتها حتى أخذت تطرق الدار بكلتا يديها.

فتحت الحماة، فصُعِقَت لما رأت (هديل) حافية القدمين، عارية الرأس من الحجاب، وتبكي وتسقط عند قدميها تتوسل أن تعطيها ابنها، أطاحت الحماة (هديل) بقدمها وقالت في قسوة وغلظة:

– ليس لك أبناء هنا، وهذا البيت لا تعودي إليه مرةً ثانيةً.

بكت هديل، وازداد النشيج والنحيب والصراخ، حاولت أن تدفع حماتها وتدخل لترى ابنها، وتلتقطه فتلقمه قبلات، وتشم رائحته، وتهدهده، وتحتضنه ولو لآخر مرة، لكن الحماة كانت أعتى

وأقوى؛ خاصةً وهديل أعياها ما كان يحدث فيها من قبل ونزل وزنها إلى النصف، فدفعتها الحماة في قسوة وظلت تضربها وتسحلها من ذراعها على سلم الدار وطول الممر الممهد في منتصف الحديقة المفضية لباب الدار، ثم فتحت البوابة الكبيرة وألقت بها خارج الدار، وأغلقت الباب الكبير بالقفل، فأخذت هديل تزيد الصراخ تبكي وتنتحب، وتعيد: «حسبي الله ونعم الوكيل، أريد ابني، اعطوني ابني.»

اتصلت أم خليل بزوجها تستنجد به أن يأتي قبل أن يأتي (خليل) ويرى طليقته فيحن قلبه، ثم قام هو بدوره بالاتصال بأخ (هديل) وهدده أن يبلغ الشرطة في حال تهجمت أخته مرةً ثانيةً على بيته، فجاء (محي) وقام بمساعدة ابن عمه بتكتيف (هديل) وأخذاها في سيارة لكن هذه المرة انطلقوا بها نحو مصحة نفسية؛ امتثالًا لنصيحة ابن العم الذي قال أن (هديل) تحتاج لعلاج نفسي وإلا جلبت لهم مزيدًا من الفضائح.

وهناك في مصحة (جوانتانمو) لا يمكن أن تُسَمَّى بغير ذلك فهي لم تكن أبدًا للعلاج النفسي بل للتعذيب، تلقت (هديل) صفعات وصعقات كهربائية شديدة، كان صراخها يفتك بقلب الحديد لا الحجر، ظلت (هديل) تتلقى العلاج النفسي الكهربائي، وإن شئت قل التعذيب النفسي طيلة شهر كامل، خرجت بعده شبح أنثى لا

امرأةً أبدًا، المُهرة بركت وسقط عنها نصف شعرها وغاب عنها ثلاثة أرباع وزنها، فبقي منها شبح.

ترك الشيخ (عرفة) قطعةً من الأرض حوالي ثلاثة أفدنة غير البيت اللبن الذي كان يعيش فيه مع أسرته، وطوال حياته ما حرم فقيرًا مما تفيء على تلك الأفدنة من ثمار أو محاصيل حتى وإن كانت قليلةً.

اشتد نزع زوجة المرحوم (عرفة) الحاجة أم (محي) حتى أنها باتت ليلتها تهذي بكلام غير مفهوم، بدت وكأنها تحدث زوجها وأمها وأباها، وتقول لهم إن الفطير قد طاب وستحضره لهم وتأتي لتأكل معهم، لكن ستحضر قليلًا من العسل الأبيض، فالشيخ (عرفة) يحبه، ثم أغمضت أم محي عينها ولم تفتحهما بعدها، وهناك دُفِنت كما أوصت لحدًا بجوار زوجها، ليعود بعدها (محي) متربًا حزينًا لا يعرف ماذا سيفعل ولا كيف سيتصرف وهو الذي زواجه بعد أسبوع.

بقي كذلك حتى شعر بيد ضعيفة هزيلة تربت على كتفه وراحت تنظر إليه في حنان، لكنها لم تكن تنطق وكأنها فقدت لسانها مرةً أخرى ودفنته مع والدتها، كانت يد (هديل)، نظر إليها (محي) لكن كانت نظرته مختلفةً كأنه يقول لنفسه وماذا سأفعل بك ومعك أنت الأخرى، ما كنت لأنقصك وينقصني جنونك، لكنه أمسك بيد

أخته وأنزلها من على كتفه وربت عليها في برود.

تزوج (محي) دون زغاريد ولا زينات، ودخلت زوجته أولى ليلاتها بالبيت لتجد (هديل) تبتسم في وداعة وقد جلست بجوار باب غرفتها المواجهة لغرفة العروسين تنتظر قدومهما لتبارك لهما بعينها الحانيتين دون أن يستطيع لسانها التعبير، لكن يبدو أن العروس لم ترتح لوجود (هديل) فنظرت باستعلاء واقتضبت وحملت طرف فستانها ودخلت غرفتها دون أن تصافح يد (هديل) التي امتدت ترتعش لتصافحها.

بعد قليل خرج (محي) وطرق باب غرفة (هديل) ففتحت له وفرحت ظانةً أنه جاء يطيب خاطرها؛ لكن ما كان منه إلا أن طلب منها أن تذهب فتبات ليلتها عند بيت عمها بالجوار.

صُدِمت (هديل) أول الأمر ثم ابتلعته بغصة ونكست رأسها، وذهبت تطرق باب عمها لتبات عندهم أسبوعًا وليس ليلتها فقط.

سمعت (هديل) أخاها يتحدث مع عمه وأولاد العم في شأن ضرورة إيداعها المصحة النفسية من جديد؛ ففي ثوانٍ فُتِحَت كل ملفات التعذيب في عقلها الباطن، تذكرت جلسات الكهرباء، صعقات الماس الكهربائي، ضرب الممرضين لها، هذا يصفعها على وجهها وهذا يمسك بتلابيب شعرها، فجاء شعرت (هديل) بالأرض، تتعلق مكان السماء، كأن السماء نزلت للأرض، وجدت الحوائط

تدور وتدور وهي تدور معهم، وبدلًا من أن تقع أرضًا...

ركضت، ركضت (هديل) بعزم ما فيها، ركضت نحو المجهول، لم تعرف إلى أي وجهة تتجه، لكنها ركضت، ركضت ولم تشعر بنفسها إلا في اليوم التالي وبجوارها سيدة مُسنة يبدو من ملامح وجهها الطيبة والوضاءة، ترفع أكف الضراعة لله حمدًا على سلامة (هديل).

– حمد لله على سلامتك يا بنيتي، لا تخافي، أنا خالتك (حليمة) أجلس وحدي في هذه الدار الكبيرة بعد أن تُوُفِّي عني زوجي، ولم يرزقني الله بأولاد، لكن كل أبناء العباد أبنائي، ووجدتك مغميًّا عليك أمام الدار ليلة أمس، فأعانني الله وحملتك للداخل وغسلت لك وجهك وما استطعت من يديك ورجليك، وسامحيني لو ألبستك جلبابًا من ملابسي؛ فقد كان جلبابك مهترئًا ومتسخًا، هل أنت بخير يا بنتي؟!

أومأت (هديل) برأسها أن نعم، أنها بخير.

ناولتها السيدة (حليمة) كوبًا دافئًا من الحليب وقطعةً من الكعك، ازدردتهم (هديل) في نهم وكأنها لم تذق الطعام منذ أيام.

أمسكت السيدة (حليمة) بعد ذلك بمصحفها الأخضر، واتشحت بحجابها الأبيض، وفتحت على سورة (النور) وراحت تقرأ

بصوت عذب جعل دموع (هديل) تسيل، لكنها هذه المرة كانت دموعًا ناعمة نقيةً غسلت (هديل) ذكرتها بنفحات البركة التي كانت تحيطها أيام أبيها، فاعتدلت في جلستها، وظلت تستمتع في خشوع لآيات الرحمن بالصوت الملائكي للسيدة (حليمة) وكأن الله أعطاها مزمارًا من مزامير نبيه داوُود.

بعد أيام قليلة بدأت (هديل) تتعافى، بدأت تستوعب أين هي ففهمت أنها ركضت حتى مرت بعزبتين بعد العزبة التي كانت تسكن فيها، وأنها في بيت السيدة (حليمة) وهي سيدة مُسنة عاقر لم تنجب، لكن بالفعل كل أبناء العزبة يحبونها ويعاملونها كأم لهم.

ومع تسرب مشاعر الدفء والأمان والطمأنينة لنفس (هديل) بدأ لسانها يعود لينطق ببضع كلمات، أولًا رددت آيات القرآن وراء السيدة (حليمة)، ثم بدأت تنطق ببضع كلمات، ثم تبادلت أطراف الأحاديث فوجدت أن السيدة (حليمة) تصلها بأمها صلة قرابة بعيدة، فازداد اطمئنان (هديل) وباتت تحكي قصتها للسيدة (حليمة) التي وعدتها ألا يتعرض لها مخلوق بأذى طالما هي موجودة على ظهر الدنيا، لكن يجب أن تخبر أخاها بمكانها الجديد، فبالتأكيد أنه يبحث الآن عنها في كل مكان.

سألتها إن كانت ما زالت تحفظ برقم هاتف أخيها، فأجابت (هديل) على الفور بنعم، وطلبت بأنامل مرتعشة الرقم للسيدة

(حليمة) وأعطتها الهاتف، فتحدثت السيدة مع الأخ الثائر الهائج الذي بعد سكينة وثبات السيدة ما عاد هائجًا، بل هدأ وسكن كطفل صغير ووعد بزيارة سريعة.

لم يلبث الأخ إلا سويعات قليلة حتى جاء ليطرق باب السيدة (حليمة)، وما إن دخل حتى اختبأت (هديل) خلف ظهر السيدة في حركة طفولية بريئة؛ فأمسكت السيدة الحنون بذراعها وربتت على ظهرها وأجلستها بجوارها ونظرات ثبات تطمئنها.

– متشكر يا خالة لاستضافة أختي المريضة ورعايتها هذه الفترة لكن لا بد أن آخذها الآن فأختي تحتاج للعلاج، والمصحة أفضل مكان لرعايتها خاصةً بعد وفاة أُمنا.

– لا شكر على واجب، أنا أعتني بابنتي التي وهبني الله بها على الكبر كما وهب سيدنا زكريا ابنه، أما عن كون (هديل) مريضة وتحتاج للعلاج؛ فوالله يا بني أجد أن قلبك هو من بحاجة للعلاج؛ أمن أجل الميراث وحفنة رمال ستتحول لها يومها تلقي بأختك بين براثن التعذيب والتهلكة؟!

– يا خالة!

– اسمعني جيدًا يا بني، أنت بذرة لرجل طيب، وهب عمره كاملًا لتحفيظ وتدريس كتاب الله، فراع الله في رحمك واتق الله في أختك،

وإذا كنت آتيًا لتلقي بأختك في المصحة من أجل أن تستولي على ميراثها فسأدع أختك بنفسها تحدثك، بعد أن أعانني الله اليومين الماضيين وقبل أن أتصل بك قد آتتني كل أخبارك من أبنائي أحبائي ممن هم في مثل سنك، لكن قلبهم أرق لينا من قلبك، اسمع يا بني أختك المريضة ماذا ستقول لك، ثم الحكم لله بعدها ثم لك.

تلعثمت (هديل) وتفصد جبينها عرقًا، وظلت تشبك أناملها وتفرقهم، حتى جاءت ربتة من السيدة (حليمة) ونظرة حملت كل معاني القوة والحنو في آن واحد لتشجعها أخيرًا على الحديث، فقالت وهي تبتلع ريقها:

– (محي) ميراثي من أبي، أشهد الله أنني لم ولن أطالبك به، فهو معك بمثابة أمانة إن شئت أن تأتيني بريعه فأنت أهل لذلك، وإن لم تشأ فالله يسامحك ولن أقاضيك، فكيف أقاضي من يجري في عروقه ما يجري في عروقي، كيف أقاضي ظهر أبي وصلبه؟! أما عن رجوعي للعيش في بيت أبي فقد استغنيت عنه بالعيش مع السيدة (حليمة) والتي استطاعت بفضل الله ثم اتصالاتها بأحبائها أن تتوسط ليعيدوني لعملي بعد إيقافي عنه، ويوم السبت القادم بإذن الله سأمتثل لتحقيق روتيني آمل أن ينتهي بعودتي للعمل، وبالتالي سأصرف منه على نفسي ولن أكون في حاجة لأحد بفضل الله، وبالتالي فالبيت كله لك وأنا مسامحة في حقي فيه بطيب خاطر

إكرامًا لأبي وأمي رحمهما الله وحتى لا يُقَال أولاد الشيخ (عرفة) تنازعوا حطام الدنيا بعد موته، لكن أرجوك اتركني أعيش في أمان هنا مع السيدة (حليمة)، كنت أود أن أطلب مساعدتك في أن أسترجع ابني لكن أعلم أنك لن توافقني، لكن على الأقل أرجوك اتركني أعيش ما تبقى لي دون تعذيب في أمان مع السيدة (حليمة) التي عوضني الله بها عما حُرِمت منه، وأعدك ألا أضايقك عمري.

فرّت الدموع من عين (محي) بينما سالت أودية من عيون السيدة (حليمة) و(هديل)، حاول (محي) أن يمتلك رباطة جأشه، وأن يتمالك نفسه فقام وقَبّل جبين أخته، وقال والدموع تتحشرج في حلقه:

– سآتي كل حين لأطمئن عليكِ، كوني بخير.

تنفست (هديل) الصعداء بعد خروج أخيها، وارتمت في حضن السيدة (حليمة) وأخذت تبكي حتى غفت وهي على صدر السيدة وكأنها طفل صغير.

جاء يوم التحقيق، خرجت (هديل) من غرفة التحقيق وجبينها يقطر عرقًا وتمسحه بمنديل ورقي، بينما جلست السيدة (حليمة) تغالب قلقها، وتحاول أن تطمئنها بأن المحامي سيخرج الآن ويفيدهم بخبر رجوعها للعمل.

كانت هديل مشتاقةً كثيرًا للصف الدراسي أكثر من احتياجها للعائد المادي، كانت سترى في الطلاب الصغار عوضًا ولو مؤقتًا عن ابنها، كانت ستبادلهم الحب والمودة ولحظات الفرح، كانت تنوي أن تحضر شطائر إضافيةً في حقيبتها مع بداية الدراسة لتعطي الجائع منهم، وتخبئ بالونات فتفرح الحزين منهم، وتحمل كتبًا وقصصًا لتسري عنهم وتشحذ هممهم...

كان لديها الكثير والكثير، حتى قطع خيالها المحامي بثيابه السوداء وفي يده ملفات وعلى أنفه نظارة ضخمة ويفتعل ابتسامةً ويقول:

- مبارك؛ هديل ستحصل على راتبها كاملًا وهي مرتاحة في البيت.

صُعِقت (هديل) بما قاله المحامي، وقالت: كيف ذلك؟! أنا لا أريد راتبًا، أنا أريد أن أعود للتدريس.

ردت السيدة (حليمة) انتظري يا (هديل) لنفهم من الأستاذ (عشماوي) كيف ذلك يا أستاذنا يعني؟! كيف ستحصل (هديل) على راتبها وهي في البيت لا تعمل؟!

أجاب المحامي وهو يرفع نظارته فوق أنفه ويدفع بها لعينيه:

- رفضت الإدارة عودة (هديل) للتدريس، يبدو أن أحدهم

سبقنا وعلم بما نسعى له وقدّم ما يفيد بمرض هديل النفسي وأنها سبق ودخلت مصحةً نفسيةً، فبعد محاورات ومداولات وجولات وصولات مني وافقوا طبقًا للائحة رقم (...) أن تحصل هديل على راتبها لكنها تُعَامل معاملة المرضى المزمنين، ولن تعود للعمل داخل الفصول لأن ذلك يعرض حياة الطلاب للخطر، وطبعًا وفقًا لما قدمه المؤذي الذي سبقنا بشكوى مدعمة بصور من ملف (هديل) الصحي.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، من هذا المؤذي الذي يكن كل هذه الضغينة وكل هذا السواد لهديل؟! ومن أين أتى بتلك الصور وكيف؟! لعله خير يا رب والخيرة فيما اخترت.

قالت السيدة (حليمة) تلك الكلمات وهي تضرب كفًّا على كف، ثم أمسكت بعكازها واستعدت للقيام.

حاولت السيدة (حليمة) تهدئة (هديل) التي ما إن وصلت إلى البيت حتى انفجرت في وصلة بكاء ونحيب لأنها لن تعود للتدريس، وهذا قمة الألم بالنسبة لها؛ ناهيك عن شعورها بالدونية وهي ترى كلمةً تحرج المحامي في نطقها عنها، وإن قالتها عيناه بأن المحققين غالبًا ما قالوها وأعادوها كثيرًا بأنها: مجنونة!

يا الله! (هديل) المهرة العربية الأصيلة التي كان خيرة شباب البلد يتهافت على نظرة من عينيها، وجُلّ مدرسي القرية يتنافسون على

إلحاقها بفصولهم وهي طالبة لذكائها ونبوغها وفصاحتها ورجاحة عقلها... الآن يغمغم الجميع بأنها مجنونة.

– ولكن من مصلحة من يا أمي أن يُقَال عني مجنونة؟! من الذي يضمر لي كل هذا السواد وأنا التي ما كرهت أحدًا في حياتي ولم يعرف قلبي سوى الحب؟!

– اهدئي يا (هديل) كل شيء مخبأ؛ اليوم غدًا تشرق عليه الشمس ويصبح مكشوفًا، قومي يا بنتي فتوضئي وأمسكي بكتاب اللطيف الخبير واقرئي ما تيسر من سورة (الرحمن)؛ ترحم ضعفك، بينما سأقوم أنا لأسخن الغداء الذي قمنا بتجهيزه صباحًا قبل أن نذهب للتحقيق.

أشرقت شمس اليوم التالي حاملةً معها الكثير.

لم تكن أم خليل لتهدأ ولا لتسكن طالما (هديل) ما زالت قيد الحياة، انتهزت (أم خليل) ما حدث بين (هديل) وأخيها، واتصلت بـ(محي) بعد أن علمت بزيارته للسيدة حليمة، وفي القرية لا يخفى شيء على أحد؛ وخبر كاختفاء (هديل) ثم إيجادها لن يخفى على أحد بالتأكيد...

اتصلت به وطلبت منه أن يحضر إليها لأمر مهم جدًّا، وهناك استخدمت أم خليل كل أساليب الدهاء والمكر في إقناع (محي)

بضرورة ألا تعود (هديل) للعمل وإلا ستقوى شوكتها وبالتالي سيأتي اليوم الذي تقف فيه على رجليها ويصبح لديها المال الكافي لتقاضي أخاها وتطالب بميراثها.

تردد (محي) بدايةً وحاول أن يستبعد ذلك عن فكره؛ خاصةً وأن أخته أظهرت صفاء سريرتها وأقسمت ألا تقاضيه وألا تطالب بميراثها أبدًا، لكن ما إن حمل (محي) معه تلك الإرهاصات والأراجيف والفوضى الفكرية لبيته حتى حسمت زوجته كل شيء ووضعت كل شيء، لكن ليس في مكانه الصحيح، وضمت صوتها لصوت إبليس وأقنعت زوجها بضرورة أن يضع يده في يد أم خليل حتى لا تعود أخته لعملها؛ وإلا سيأتي اليوم وتأتي أخته وتطالب بنصيبها في دار أبيها ووقتها ستتركه هي بلا عودة حاملةً في أحشائها بذرته التي بدأت تنمو منذ شهر واحد.

وهكذا أمد (محي) أم خليل بصور الروشتات والتقارير الصحية لهديل والتي تثبت أنها سبق وأودعت مصحةً نفسيةً وتعرضت لأزمة نفسية شديدة، وبدورها استغلت أم خليل كل هذا في تهييج بعض أولياء الأمور من أصحاب المصالح والذين غالبًا يستأجرون بيوتًا في عمارة زوجها وجعلتهم يقدمون شكاوى مقدمًا ضد (هديل) مطالبين بعدم رجوعها للعمل لأن في ذلك خطورة على صحة أبنائهم النفسية، بل وخطورةً على حياتهم من معلمة مجنونة.

علمت السيدة (حليمة) بكل ذلك من أحبائها الذين لا يبخلون عليها بأي طلب تطلبه منهم، وأتوا إليها بالأخبار، وجميعهم تقريبًا ومع اختلافات بسيطة في الروايات أكدوا ما سبق، فترددت السيدة (حليمة) في إخبار (هديل) في بداية الأمر، لكنها حسمت أمرها بضرورة أن تبلغها وأن تقوي من ضعفها وتخفف من صدمتها بقصة سيدنا يوسف مع إخوته.

وبالفعل، وبالرغم من صدمة (هديل) بما نقلته لها السيدة (حليمة) إلا أنها قررت أن تكون قويةً، وألا تستسلم وألا تتخلى عن حلمها في التدريس، اختلت (هديل) بنفسها قليلًا وذهبت لتسقي بعض الأزهار في حديقة الدار وتغير ماء القدور أمام الدجاج الذي تربيه السيدة (حليمة) وأخذت تفتت بعض لقيمات تطعمها للحمام الذي بدأ يسبح حامدًا لله وحاطًّا على كتفيها...

وفجأةً قامت (هديل) ورمت كل ما في حجرها من خبز مفتت للطيور وركضت حتى طار الحمام مفزوعًا، دخلت (هديل) الدار فوجدت (السيدة حليمة) ممسكةً بسبحتها ذات الألف حبة وكأنها بدأت لتوها وردها في الصلاة على الحبيب محمد رسول الله (ﷺ)، فجلست (هديل) على ركبتها وأمسكت بيدي السيدة (حليمة) وقالت وعيونها تلمع فرحًا:

- وجدتها يا أمي، وجدتها أخيرًا، سأعاود التدريس، سأحقق

حلمي، سأثبت للجميع أني لست مجنونةً، سأعيد إحياء ما دفن مع أبي، والفضل لله ثم لكِ.

ابتسمت السيدة (حليمة) ورفعت طرف حجابها الأبيض ووضعته في حركة عفوية خلف عنقها وقالت: كيف يا ابنتي، زيديني فرحًا؟!

– سأفتتح كُتّابًا صغيرًا هنا في حديقة الدار، وطبعًا في قريتنا هذه لا يعرف أحد بقصة علاجي ولا بدخولي سابقًا مصحةً نفسيةً، سأدخل في جمعية شهرية بنصف راتبي ولن أفصح عن حلمي لأحد غيرك، حتى يكتمل لدي المبلغ الذي يكفيني لإعداد المكان بالكراسي والسبورة وبعض المصاحف الصغيرة والكتب والأقلام، وسأحضر أيضًا بعض الهدايا والمفاجآت لطلابي، وسأُحفّظ كتاب الله مجوَّدًا وبالأحكام، وأحاديث رسول الله فأنا أَحفظ مسند الإمام أحمد كاملًا عن أبي، وأَحفظ رياض الصالحين، وأُعلّم في فترة مسائية –إن وافقتِ– نساء القرية القراءة والكتابة وإن أردن أُحفّظهن أيضًا القرآن، فما رأيك؟!

– موافقة طبعًا، وهل في ذلك شك! لقد كان حلمي منذ صغري –سبحانك ربي– ولقد تحقق على يديك، يسخر الله الطيبين ليكونوا جندًا لبعضهم ولا يعلم جنود ربك إلا هو، نأتي في هذه الحياة لنتكامل ونكمل بعضنا، والله ما خلقنا أبدًا لنتصارع

ونتخالف، ففي اختلافنا اكتمال لمن كان عنده قلب، لكن مشروعًا كهذا يستدعي تصريحًا من الأمن، وقتما يتدبر لدينا المال الكافي لافتتاحه سييسر الله لي ذلك فلا تقلقي، فأحباب أمك (حليمة) كُثر وجند الله أكثر، ولا يعلم جنود ربك إلا هو.

لكن يا بنتي استعيني على حلمك بالصبر والكتمان، وأنا يدي بيدك وقلبي يحتوي قلبك، وإن وضعت 10 قروش سأضع معك 10 جنيهات، فالتجارة مع الله رابحة، وربح البيع إن شاء الله، وبإذن الله نفتتح المشروع على رمضان القادم وتكون البركة بركتين.

أتى شهر شعبان واقترب من النصف، وبينما (هديل) تعد وتجهز لليلة النصف التي توزع فيها السيدة (حليمة) كما اعتادت أكياسًا بها حلوى وبعض مستلزمات البيت الأساسية، وكانت (هديل) تقف بنفسها لتسلمها من أول النهار حتى يأتي الليل فتُقَام مائدة كبيرة عامرة بأصناف الطعام مما لذ وطاب وتُفْرَد في حديقة دار السيدة حليمة ويُدْعَى إليها جميع أهل القرية تقريبًا.

وكانت السيدة تشرف بنفسها على ذبح الخراف في ذلك اليوم وتقوم هي بتسويتهم على طريقة (المندي) العربية والتي كانت قد تعلمتها حينما سافرت مع زوجها في زمن مضى إلى الخليج.

وكانت السيدة تقوم بشيء طريف وجميل جدًّا في ذلك اليوم، حيث كانت تعمل مائدةً منفردةً للأطفال، وتصنع لهم أطباقًا شهيةً

وحلوى خصيصًا مصممةً بطريقة لافتة على أشكال الشخصيات الكرتونية التي يحبونها، وتقوم بنفسها بالتأكد من أن جميع الأطفال أكلوا وشبعوا فقيرهم قبل غنيهم وضعيفهم قبل قويهم، فكان الأطفال ينتظرون ذلك اليوم بفارغ الصبر، وعند الليل يقوم الشيخ (مصطفى السباعي) بمدح النبي محمد (ﷺ) وإنشاد أعذب الأناشيد في عشق الله، ومدح رسول الله وآل بيت رسول الله (ﷺ).

انقضت ليلة النصف مع دعوات الناس للسيدة (حليمة) ول(هديل)، وقاموا إلى بيوتهم فرحين ثملين من دون خمر في عشق رسول الله وحب الله، ومحمَّلين بروحانيات عالية تمدهم بطاقات عالية كافية ليقوموا يومهم الثاني وبقية الشهر، بل واستقبال شهر رمضان الكريم بشوق وحماس.

مرت الأيام سريعًا وجاء شهر الكرم، شهر الإحسان، شهر رمضان، وكانت الفرحة بقدومه فرحتين، حيث افتتحت (هديل) بمساعدة السيدة (حليمة) مشروعها الذي استطاعت الأخيرة أن تستخلص لها كل التراخيص اللازمة لافتتاحه بعلاقتها الطيبة وبفضل الله وحوله قبل كل شيء.

وبدأ الناس يقبلون فرحين يأتون بأطفالهم ل(هديل) لتحفظهم القرآن الكريم، وتلقنهم الحب والخير والجمال، ومن بين الأطفال كانت هناك طفلة جميلة القسمات ذكية بل متقدة الذكاء، لبقة

اللسان عذبة، تُسَمَّى (بيان)، كانت هذه الطفلة هي الأقرب لقلب (هديل)، كانت هديل ترى فيها نفسها وهي صغيرة.

كانت الطفلة شديدة التعلق بـ(هديل) حتى أن عمتها إذا ما جاءت لتأخذها بعد انتهاء الدرس كانت (بيان) تودع (هديل) بالدموع، ولا تكاد تريد أن تفارق حضن (هديل)، كانت لا تجلس إلا على رجلي (هديل) ومهما حاولت (هديل) أن تجلسها بالصف مع زملائها كانت الطفلة ترفض وتبكي بشدة، فما كان من (هديل) إلا أن تحملها قليلًا بعد الدرس على رجلها حتى تأتي عمتها وتأخذها بصعوبة.

تعلقت (هديل) بـ(بيان) كثيرًا، وكان حديثها كله بعد انتهاء الكُتّاب عن شقاوة (بيان) وذكائها وفطنتها وسرعة بديهتها ولباقتها وخفة دمها، مما كان يجعل السيدة (حليمة) تبتسم وهي ترى (هديل) بدأت تقوى شيئًا فشيئًا، وتستعيد رونقها وصحتها النفسية واتزانها، وأن الله أرسل لها فكرة الكُتّاب في هذا الوقت ليسليها ويسري عنها في كل ما فاتها، وظنت السيدة (حليمة) أن (بيان) أنست (هديل) ولو بشكل مؤقت موضوع رفع قضية حضانة ضم ابنها، لكن (هديل) فاجأتها بسؤالها:

- ألم يقل المحامي شيئًا بخصوص قضية حضانة (إبراهيم) يا أمي؟!

– لا يا بنتي، لم أتصل به، ولم يتصل هو، انشغلت بتجهيزات الشهر الفضيل، وظننتك انشغلت بمشروعك عن ذلك.

– وهل تنشغل الأم بالتنفس الصناعي عن رئتها الطبيعية؟!

– الصبر يا هديل، بعد العيد –بإذن الله– سأعاود الاتصال بالمحامي، وسيكون كل شيء يا ابنتي كما تتمنين.

– العيد سيأتي وكل الأمهات تحمم أبناءها، تحتضنهم، تقبلهم، تلبسهم حلتهم الجديدة وتعطهم العيدية، إلا أنا سأظل أنظر من بعيد، من خلف شاشات الهاتف عبر مواقع التواصل أتلهف أن ينزل (خليل) صورةً جديدةً لابني، فأحمل هاتفي بين أناملي وأقربه فاحتضنه وأشم فيه رائحة (إبراهيم) وأقبله ودموعي تجلدني، لكن لعل الله يبشرني بما يفرحني بعد صبري.

مرت أيام رمضان المبارك سريعًا، وهكذا هي كل الأيام المباركة، تمر مرق السهم، لا نشعر بحلاوتها حتى نشعر بفراقها، قامت (هديل) على تكبيرات (السيدة حليمة) متزامنةً مع تكبيرات مسجد القرية، ففتحت نافذة غرفتها فكان الفجر ما زال ينبثق من بعيد.

بالرغم من أن كل ما في هذا اليوم يقول أنه عيد سعيد إلا أن (هديل) قلبها مشطور محسور، وروحها حزينة، وصدرها ينهنه، يبكي وينتحب وينشج، وإن كانت عينها لم تأذن بعد بسقوط الدموع،

بدأت (هديل) تتخيل لو أن (إبراهيم) الآن وعمره أصبح ثلاث سنوات معها، يناديها بأمي هيا، ألبسيني ملابسي الجديدة، ويجري على أبيه يوقظه ويمسك بيده ويجرها بيديه الصغيرة ليقوم فيذهبا معًا لصلاة العيد، ويفتفت الكعكات على السجاد المغسول فتنزعج (هديل) وقبل أن تصرخ في غضب تتذكر أنه عيد ويجب أن يكون سعيدًا.

لكن ليس هنا (إبراهيم) وليس هناك (خليل)، فكيف سيكون العيد سعيدًا، وأخيرًا أذنت العيون بسقوط الدموع فنزلت سيول غسلت قلب (هديل) فارتاحت نوعًا ما، ثم تذكرت لطف الله ورحمته بها أنها الآن ما زال لديها أمل في استرجاع ابنها وأنها تعرف مكانه وأنه في مكان أمين حتى وأنه ليس معها، فهناك آلاف الأمهات المعذبات التي اختُطِف منهن أبناءهن فهن المحسورات حقًّا...

ثم ألقت ببصرها بالداخل فرأت السيدة (حليمة) بجلبابها الأبيض النقي وحجابها الفضفاض ووجهها الوضاء وسماحتها وحنوها؛ فمسحت دموعها وحمدت ربها فغيرها لوحده يواجه بمفرده معركة الحياة بينما جنّد الله لها تلك المرأة الحنون المؤمنة لتشدد من أزرها.

أعدت (هديل) براد الشاي وأتت بالكعكات المرشوش عليها السكر الناعم، وخرجت في الحديقة فوجدت السيدة (حليمة)

تجلس وحولها بعض نسوة القرية، وفجأةً سقطت الصينية التي تحملها (هديل) في حركة مباغتة كرد فعل لما سمعته.

فقد سمعت امرأة تقول للسيدة (حليمة) أنها متأكدة، فسلفتها تكون أخت العروس، والليلة سيدخل (خليل صابر) على أخت سلفتها التي سبق وطُلِّقت مرتين وأخذت ما وراء زوجها وما أمامهم، والغريب أن سلفها نفسه أيضًا طلق سلفتها تلك لأنهم أناس طماعون لا تكفيهم مؤونة ولا يملأ أعينهم (جُرن)، ومع ذلك وبالرغم من أنها سمعت أن الحاج (صابر) غير موافق على زواج ابنه من تلك المرأة، لكن أمه شجعته لأنها تقول أنه لن يغرم في زواجه منها شيئًا وأنها ستأتي على فرش زوجته السابقة المجنونة، وأن أخت سلفتها وافقت على ذلك، ولكن سمعت أيضًا أنهم كتبوا قائمة منقولات بكل شيء ومع ذلك لم تعارض الحاجة (ريّة).

(هديل) بمجرد سماعها (خليل) ودخلته على فرشها حتى سقطت منها الصينية وكاد يغشى عليها لولا أن السيدة (حليمة) قامت بثقل لفورها وأسندتها بمساعدة النسوة، وأجلستها وأسقتها ماءً ممزوجًا بماء الزهر، فارتوت وتماسكت قليلًا، فنظرت لها السيدة في حنو وتثبيت، ففهمت (هديل)، واعتذرت، وقالت أنها لم تتناول عشاءً كافيًا أمس ولم تفطر، فداخت غصبًا عنها، ثم عزمت على النساء بالإفطار فشكرنها وعندما اطمأنت النسوة عليها

استأذن بالانصراف، بينما ارتمت (هديل) في حضن السيدة (حليمة) وواصلت البكاء وكأنها لم تبكِ منذ سنين.

طرقت الحاجة (ريّة) بيت ابنها (خليل) العريس الجديد كثيرًا لكن دون إجابة، وكأن من بالداخل من أهل الكهف، فنزلت للمرة الثالثة لبيتها تغمغم وتسب وتلعن، فسألها زوجها الحاج (صابر):

– ألم يصحَ البيه وزوجته الهانم حتى الآن وقد أوشك العصر أن يؤذن، أهذه التي أتت لتربي ابنه وتحمل عنك بعض الأعباء، الآن نحن في الأسبوع الخامس من زواجهم ومع ذلك الهانم لا تصحو إلا متأخرةً تاركةً عبء الولد والمنزل كله عليك، وحتى شؤون زوجها لا تقوم بها و(خليل) بدأ يشكو لي إهمالها وكثرة نومها وكسلها.

– ما زالت عروسًا وحتمًا ستفيق يومًا، وإلا سأهد البيت على رأسها وأعيدها من حيث أتت؛ فلقد فاض بي الكيل أنا الأخرى، (هديل) رفعت القضية التي حاربت عمرًا حتى لا ترفعها وبين لحظة وضحاها قد تكسبها وتضم حضانة (إبراهيم) لها ووقتها قد أموت أنا وتذهب روحي مع ذهاب ابني الذي عوضني القدر به عن ابنتي.

– أما زالت لديك صور من تقارير المصحة النفسية التي دخلتها (هديل) والتي يمكننا أن نثبت بها أنها غير أهل لحضانة ابنها؟!

– أعطيتها للمحامي، لكنه يقول أن الكُتّاب الذي فتحته

(هديل) والذي أصبح من أكبر دور تحفيظ القرآن الكريم وتدريس مبادئ القراءة والكتابة قد يستخدمه محاميها في إثبات أهليتها مع تقرير حديث من أحد الأطباء بأنها تعافت وهنا مكمن خوفي، لكنني لن أقف مكتوفة الأيدي وأسلم ابني لهذه المجنونة بيدي.

وهناك في دار النعمان للقرآن، كما أسمتها السيدة (حليمة) على اسم زوجها المرحوم الدكتور نعمان، كانت (هديل) تقف تعيد ترتيب بعض التلاميذ وفقًا لطولهم فالقصير في الأمام والطويل في الخلف، وضعيف النظر مقدمًا... إلخ.

أصبحت الحديقة تضيق بعدد التلاميذ الذي بدأ يتضاعف، ولاحظت ذلك (هديل) والسيدة (حليمة)، فطلبت الأخيرة من (هديل) أن تتوقف عن قبول تلاميذ جدد لحين ما يتدبران الأمر.

وافقت (هديل) على مضض، فكل طفل كانت ترى فيه ابنها (إبراهيم) وكانت تتمنى أن تعطيه كل ما لديها من حب وعلم، لكن بالفعل المكان أصبح لا يستوعب أعدادًا أخرى، كما أنها ستصبح في حاجة لمن يساعدها، وبينما هي شاردة تفكر وتنظر للتلاميذ المنصرفة إذ بالطفلة (بيان) تشد ثيابها في ضعف...

تنبهت (هديل) ونظرت في حنو وانحنت لتحملها لكن (بيان) كانت درجة حرارتها مرتفعةً جدًّا، فذُعِرت (هديل) وركضت بالبنت للداخل نحو السيدة (حليمة) التي أعطت البنت خافضًا للحرارة،

لكن دون جدوى، فحرارة الطفلة ظلت مرتفعةً، فأخذتها (هديل) وظلت تصنع لها كمادات ثلج عل الحرارة تنزل، حتى قالت في حزم: «سآخذ البنت للمشفى، فأرجوك يا أمي هذا رقم عمتها؛ اتصلي بها لتلحقني إلى هناك.» وخرجت (هديل) مندفعةً دون أن تنتظر جوابًا من السيدة (حليمة).

وصلت (هديل) بـ(بيان) للمشفى، فقام الطبيب بإعطاء الطفلة حقنة مضاد حيوي، وقال إن لديها التهابًا شديدًا في الحلق واللوزتين، وطلب بعض التحاليل السريعة لسرعة الترسيب والدم، وبعد أن يذهب الالتهاب عن البنت سيعاود الكشف عليها بعد أسبوعين، وكتب لها حقن مضاد حيوي وبعض الأدوية لخفض الحرارة، وقال إن البنت يلزمها تدفئة ورعاية تامة، وبينما الطبيب يوصي (هديل) كانت دموعها تتدفق بغزارة حتى ظن الطبيب أنها ابنتها، فظل يهدئها ويطمئنها أن البنت ستكون بخير وأن كل الأطفال في هذا السن غالبًا يتعرضون لمثل هذه المشاكل، فلا داع للقلق.

هنا سمعت (هديل) لأول مرة (بيان) تنادي بصوت ضعيف (بابا)؛ فالتفت (هديل) خلفها فوجدت رجلًا ذا لحية خفيفة مُحدَّدة وشارب قصير ووجه مستدير، متوسط الطول، متناسق الجسم، أنيق، ذا عطر جذاب، يبدو من هيئته الهيبة واللطف معًا، في وجنتيه غمازتان ظهرتا عندما ابتسم أول ما نادته (بيان)، فوضع

كفه على جبينها ووضع قُبلةً حانيةً، وربت على صدرها في حنان بالغ، ثم التفت إلى الطبيب وقال في صوت رخيم:

– ألف شكر يا دكتور وأتمنى أن تكون (بيان) بخير.

وضع الطبيب يده على كتف والد (بيان) وقال:

– اطمئن أستاذ ابنتك بخير، التهاب في اللوزتين والحلق، ولقد أعطيت كافة التعليمات لزوجة حضرتك الأستاذة (هديل) فلقد جاءت بـ(بيان) في الوقت المناسب صراحة.

ثم انصرف الطبيب معتلًا بأن لديه بعض المرضى الذين هم في حاجة لمروره عليهم.

ارتبكت (هديل)، واحمرّ وجهها خجلًا، وظلت تشبك بين أناملها في حياء واضطراب، وارتبك الأستاذ (عثمان) هو الآخر لكنه سرعان ما استجمع أعصابه وقال في نبرة يغلبها الحزم الممزوج بالود وهو ينظر تجاه (هديل):

– شكرًا أستاذة (هديل) لإنقاذك حياة ابنتي؛ لو كانت والدتها ما زالت حيةً ما فعلت أكثر مما فعلته أنت معها، فجزاك الله خيرًا، لا أعلم حقيقةً ما يوفيك من الشكر حقك، لكن يكفيك دعوات أختي وأمي لك الآن منذ أن اتصلت السيدة (حليمة) بنا وأعلمتنا بما حدث، لكن لولا أن السكر أقعد والدتي لسماعها خبر تعب (بيان)

لكانت أختي (سوزان) جاءت معي وشكرتك بنفسها، لكنها ظلت مع والدتي، وجئت من عملي فور أن اتصلت بي وأشكرك بالنيابة عنها وأسأل الله ألا يضرك في عزيز لديك.

– لم أفعل سوى واجبي نحو ابنتي؛ يعلم الله كم أحب (بيان) وهي بمنزلة (إبراهيم) ابني تمامًا، فلا داع للشكر أستاذ.

– (عثمان أباظة) وكيل للنائب العام، ربنا يبارك لحضرتك في ابنك ويقر عينك بزوجك ويبارك لك فيهما.

– جزاك الله خيرًا يا سيادة المستشار (عثمان)، ادع لي أن يرد الله لي ابني مردًّا جميلًا.

– عفوًا؛ هل ابن حضرتك ليس معك؟!

– نعم، مع أبيه منذ ثلاث سنوات ونصف تقريبًا ولم أره منذ ذلك الوقت إلا خلسةً، لقد أوحشني صوته فلم أسمع منه كلمة (أمي) منذ سنتين ونصف تقريبًا، أوحشتني رائحته، تمنيت لو ضممته فشممت رائحته وغفوت معه قبل أن يغفو هو في حضني.

– لقد ألهبت قلبي وجعًا، أسأل الله أن يرده إليك مردًّا جميلًا، لماذا لم تخرجاه خارج خلافاتكما؟ وشرعًا وقانونًا هو لحضانتك، ومن حق أبيه أن يراه وقتما شاء، ليس من الحكمة أن نجعل الأبناء عصًا لضرب الطرف الآخر بها، لأنهم لن يؤلموا الطرف الآخر بقدر

ما سيؤلموننا نحن بوجعهم.

– هذا عندما يكون للطرف الآخر قلب أو عقل، لكن عندما تتبدل القلوب بالحجارة والعقول بالثرى فحينها لن يجدي كلام ولن يُسمَع نداء.

– عمومًا، أنا تحت أمرك في أي وقت تحتاجين فيه لأي دعم، ومن هذه اللحظة اعتبريني أخاكِ، وهذا كارت به كافة أرقام هواتفي... هيا يا (بيان) لنذهب للبيت ولتقولي لأستاذة (هديل) شكرًا ... هل تسمحين لنا أن نوصلك في طريقنا أستاذة (هديل)؟!

– لا أريد أن أتعبكم سيادة المستشار.

– لا تعب ولا شيء، ستحملك السيارة، ولن نحملك على أكتافنا أستاذة.

ابتسمت (هديل)، ووضعت (بيان) يدها في يد (هديل) فحملتها (هديل)، وعندما حاول (عثمان) أن ينزلها فأبت ورفضت بشدة، فطلبت منه (هديل) أن يتركها وراحتها، حتى غفت ونامت (بيان) على رجلي (هديل) في السيارة، وعندما جاءت (هديل) لتنزل؛ استيقظت (بيان) وبكت بشدة، ورفضت أن تفك ذراعيها عن رقبة (هديل)، وبعد محايلة شديدة من (هديل) وافق (عثمان) أن تبيت (بيان) ليلتها مع (هديل) على أن يمر عليهم صباحًا ليطمئن عليها قبل ذهابه

لعمله، وفي الظهيرة ستأتي عمتها لتأخذها.

في بيت الحاج (صابر) عمت الجلبة، فهذه هي المرة الخامسة تقريبًا التي تتقيأ فيها الحاجة (ريّة) بينما تشكو من صداع يكاد يفتت رأسها منذ أسبوع، وكلما عرض عليها زوجها أن يذهب بها للطبيب ترفض وتقول إنها ستأخذ حبّة مسكن وستكون بخير، لكن هذه المرة اشتد الأمر حتى وقعت من كثرة القيء والصداع مغشيًّا عليها، فطلب الحاج (صابر) الإسعاف، وترك إبراهيم مع زوجة (خليل) بينما انطلق هو وابنه وراء زوجته...

وهناك خرج عليهم الطبيب مكفهرًّا وقال في نبرة يائسة: «لقد تأخرتم كثيرًا، لقد أصاب الحاجة نوع نادر من سرطان الدماغ، ومع الأسف بدأ يتسرب لبقية الجسد، فوصل إلى العمود الفقري، وبدأ ينخل في العظام ويبدو أنه أصاب جزءًا كبيرًا من الكبد والبنكرياس وأجهزةً مختلفةً من الجسم، وفي هذه الحالات ستتعرض المريضة لجلسات مكثفة من الكيماوي والإشعاع، ولكن وبمنتهى الصراحة أقولها لكم إنها مجرد أيام.»

ضرب الحاج (صابر) كفيه ببعضهما وظل يحوقل ويسترجع، وابنه (خليل) فارغ فاه في ذهول، يحاولان استيعاب الأمر.

ثم استجمعا قوتهما ودخلا على الحاجة (رية) فوجدا كل مكان بجسمها تقريبًا يخرج منه خرطوم موصل بجهاز يعطي إشارات على

شاشات، وهي في غيبوبة تامة، جلسا بالقرب منها، حاول الحاج (صابر) أن يضع يده بيدها، ففتحت عينيها وجالت ببصرها في جميع أنحاء الغرفة، فقال لهت زوجها:

– أنا بجانبك يا أم خليل، هل تحتاجين شيئًا؟!

لكنها ظلت ساهمةً، وكأنها لا تسمعه، وفجأةً بدأت تغمغم وكأنها تحدث أناسًا ليسوا هنا، ثم غابت في غيبوبة جديدة. طلب الحاج (صابر) من ابنه أن يرجع للبيت ليطمئن على ابنه وزوجته ويحضر بعض الأغراض، فانطلق (خليل) عائدًا للبيت وهناك كانت المفاجأة.

❁❁❁

كان يوم الجمعة وهو يوم إجازة الدار، ولكن يبدو أن (هديل) لديها مهمة جديدة لكنها أكثر محبةً لقلبها وهي العناية ب(بيان)، تلك الطفلة التي بزغت كالقمر من وسط العتمة لتنير قلب (هديل) الذي كاد ينطفئ بغياب ابنها (إبراهيم) عنه.

كانت (بيان) طفلةً جميلة القسمات ذات شعر طويل أسود كليل حالك ووجهها كطبق حليب مستدير، وخدودها كتفاحتين، بينما برزت شفتاها كحبتي كرز، عيناها نجلاوتان مكحولتان، رموشها كحدي السيوف، خفيفة الظل، متقدة الذكاء، ثرثارة مع

سقطات في بعض الحروف زادتها لذةً وطعامةً وخفةً وجمالًا وجاذبيةً، كانت في الثالثة من عمرها ومع ذلك تحفظ الحروف الأبجدية كلها، وتحفظ قصار السور أكملها، وكثيرًا من الأناشيد الجميلة، وكان صوتها جميل بمجرد أن تسمعها تغني تجعلك تتشوق لتقبيلها وحملها واحتضانها.

يبدو أن حرارة (بيان) –بعد حقنتي المضاد الحيوي، وأخذها للخافض– بدأت تستقر نوعًا ما، لكنها ما زالت لا تريد أن تفارق حضن (هديل)، للدرجة التي جعلتها تتناول الإفطار بصعوبة غير صعوبة البلع حيث كانت جالسةً على حجر (هديل) لا تريد أن تتزحزح، وما نزلت عن رجلي (هديل) إلا عندما طلبت منها أن تدخل الحمام لقضاء حاجتها فتركتها (بيان) بصعوبة بالغة.

دق جرس البيت، ففتحت (هديل) وهي تحمل (بيان) على ذراعها، فوجدت (عثمان) يبتسم، فشعرت (هديل) –ولأول مرة ومنذ سنوات– بقشعريرة تسري بجسدها كله، لم تدرِ ما مصدرها، ربما التقاء شاطئي عينيهما، فعمق عيني (عثمان) لم يكن بالهين، الدفء المسكوب على رموشه كان بالقدر الكافي ليذيب جبال الجليد القابعة على فؤادها.

شعرت وكأنه يعانقها، يضمها بكل ما أُوتِيَ من احتياج بعينيه، كأنه الاجتياح بقدر الاحتياج، وعندما امتدت يده لتصافحها ذابت

روحها في راحته، من بين اضطراب النبضات وُلِدت مشاعر كانت تظن أنها وُئِدت منذ زمن ودُفِنت مع طعنات الغدر من (خليل)، لكنه الله، ننسى والكريم لا ينسى، يعوضنا ويبدلنا خيرًا مما أخذ منا طالما وجد في قلوبنا خيرًا.

– تفضل أستاذ (عثمان)، لا يصح أن تظل واقفًا هكذا على الباب.

– شكرًا أستاذة (هديل) كنت أريد الاطمئنان على (بيان) فحسب، لكن واضح أنها تحسنت كثيرًا، الحمد لله، لا أعلم كيف أشكرك على كل ما فعلته مع ابنتي حقيقةً.

– لا تقل هذا، (بيان) ابنتي، والله يشهد على مدى حبي لها وتعلقي بها، وكأن الله أرسلها لي لتعوضني عن فراق ابني الوحيد، تفضل لتشرب معنا الشاي فأمي (حليمة) بالداخل.

– مرةً ثانيةً بإذن الله سآتي ونشرب عصيرًا مثلجًا، لأنني تأخرت الآن على عملي، ومرةً ثانيةً ألف شكر، وأتمنى ألا تكون (بيان) أتعبتك.

– وللمرة الألف لا شكر على واجبي نحو ابنتي.

دخل (خليل) من بوابة البيت على ضجة وجلبة وصوت وزحام، فشقّ الزحام وهو متجهم ومندهش واندفع يركض نحو باب شقة

والده فصُعِق لما وجد المنظر، فقد وجد ابنه (إبراهيم) في حجر جارتهم ويده اليمنى عليها ضمادات والجارة تغمغم وتدعو وتقرأ بعض آيات القرآن الكريم على الصغير عله يهدأ وينام، لكن أنى للصغير أن ينام من شدة الألم والحرق من الدرجة الثانية.

وما إن شاهدت الجارة (خليل) حتى راحت تصرخ في وجهه وتسبه وتتهمه بالإهمال وأنه ليس أهلًا للأبوة، فكيف يترك طفلًا صغيرًا بمفرده في بيت والبيت فيه بوتجاز وكبريت وغاز وكهرباء و... إلخ ويخرج.

وظلت الجارة تركل (خليل) بكلامها حتى صرخ في وجهها:

– كفى! ماذا حدث لابني؟! لقد كنت مع أمي في المشفى بعد أن أوشكت على الموت، وتركت ابني مع زوجتي، فكيف ومتى حدث له ذلك وأين زوجتي؟!

فتحت المرأة فاها في ذهول، ولم تجد جوابًا، وبعد فترة وجيزة من الاندهاش قالت:

– ألف سلامة على الوالدة يا بني، والله ما علمت بمرضها، أنا سمعت صوت البكاء العالي المستمر للطفل فجئت أركض ظانةً أن والدتك معه وأن سوءا أصابه فجئت أحمله عنها، لكن وجدت الباب مغلقًا، فرحت أطرق دون رد. زاد بكاء الطفل، فاستعنت

بالجيران وكسرنا الباب ومعذرةً يا بني، فقد وجدت ابنك والنار مشتعلة في الستارة وممسكة بكُمه الأيمن، والحمد لله أسرعنا وأطفأناها، وجرينا به على المشفى القريب فأسعفناه، وعندما دخلنا لم نجد معه أحدًا لذلك احتد صوتي معك يا بني، فسامحني.

– لا عليك يا خالة، جزاك الله خيرًا، لكن أين ذهبت زوجتي؟!

❁❁❁

جلست (هديل) بعد أن وضعت صينية الشاي بالنعناع من يدها على المنضدة الصغيرة، وناولت السيدة (حليمة) كوبًا ساخنًا من الشاي احتسته السيدة على مهل، ثم رفعت بصرها وقالت لـ(هديل):

– والله (بيان) كانت تملأ البيت حسا وبهجة بالرغم من مرضها، وما كنت أتمنى أن تذهب مع عمتها لولا أن جدتها مريضة وتتوق لرؤيتها.

– فعلًا، أنا أيضًا اعتدت على وجودها في حضني، وحسها في البيت وهي تناديني ماما، وكأنها جاءت لتسمعني الكلمة التي انحرمت منها منذ أن غاب عني ابني، أرأيتِ كيف أنها ذهبت وهي تبكي وكانت متشبثةً برقبتي وتعانقني لا تريد أن تتركني.

– نعم، انتشلتها عمتها بقوة وهي تصرخ، لكنها وعدت بأن تأتي

بها غدًا للدار، صحيح على غرار ذكر الدار، أبشري لقد اتصلت بالمقاول وسيأتي ليضم المئة متر المجاورة التي كنت أخزن فيها بعض الأغراض للدار وسيتم توسعة الدار وبناء فصول جديدة لتستوعب كل الأطفال الجدد بإذن الله يا حبيبة أمك.

– والله أنت كأمي فعلًا، بل لا أبالغ لو قلت أنك عندي أغلى من نفسي، الله لا يحرمني منك ويديمك لي تاجًا فوق رأسي.

ثم قامت (هديل) فقبّلت يد ورأس السيدة (حليمة) وارتمت على صدرها وهي تبتسم، بينما أخذت السيدة (حليمة) تهدهد شعر (هديل) الناعم وتتمتم بآيات القرآن والمعوذتين.

وفجأةً رُفِع صوت مكبر الصوت لمسجد القرية ولم يكن وقت آذان، فانتبهت (هديل) ورفعت رأسها من على صدر السيدة (حليمة) وقامت إلى النافذة تستطلع الأمر، والسيدة مشرئبة الرأس تحاول أن تصغي، وإذ بإمام المسجد يعلن خبر وفاة السيدة أم خليل زوجة الحاجّ (صابر) والدفنة بعد صلاة العشاء بمسجد قرية الحسينية، والعزاء قاصر على تشييع الجنازة، والدوام لله وحده.

وضعت (هديل) يدها على فمها وهي فاغرة فاها وتردد إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يرحمها ويغفر لها، ذهبت لما قدمت.

ردت عليها السيدة (حليمة): ابنتي أعلم أنها فعلت بك الكثير والكثير، ولكنها الآن بين يدي عليم خبير قدير، فسامحيها واصفحي.

قالت (هديل) وكل ملامح وجهها تكاد تكون تيبست:

– قد أسامحها في حقي وما أذاقته لي من كؤوس القهر، قد أسامحها في ليال سود نمتها ودموعي تغرق مخدعي، لكن كيف يمكن أن أسامحها في حق طفل حُرِم ثديي رضيعًا، وحُرِم حضني وليدًا، وحُرِم حناني وحُرِم أن أقبله كل صباح عندما يصحو، وأن أقبّله كل مساء عندما يغفو، كيف أسامحها على انشقاق قلبي وانصهار روحي اشتياقًا لشمّ رائحة ابني، لسماعه يناديني أمي كباق الأمهات، لقد تلطم ابني وأمه حية تُرزَق، وانكوى صدري وابني هناك يعيش، ربما أسامحها لكن صدقًا؛ لن أستطيع أن أعدك أن أنسى الوجع والألم الذي انشطر عن زلزلتها لحياتي.

وقف (خليل) مُنكَّس الرأس يأخذ العزاء ، بينما حاول الحاج (صابر) أن يشد على يد ابنه، ويسند ظهره، خاصةً بعد الفاجعة التي ظلت حديث القرية كلها تتحدث عنها قبيل وفاة الحاجة (رية) وهي خيانة زوجة خليل له، أصبحت القرية كلها تلوك القصة ومنهم من أبدى شماتةً وقال إن هذا ذنب (هديل) ومنهم من أبدى تعاطفًا وقال إن هذا كله حدث بسبب أمه ولولاها لعاش (خليل) و(هديل) سعداء.

حينما عاد (خليل) ووجد ابنه محروقًا ظل يتصل على هاتف زوجته لكن دون أي رد، وفجأةً أُغلِق الهاتف، وعندما اتصل بأهلها قالوا إنهم لا يعلمون عنها شيئًا وإنها لم تأتِ إليهم منذ يومين، ظلّ (خليل) منتظرًا عودة زوجته فلم تعد، فدب القلق في صدره، فذهب لقسم الشرطة ليحرر بلاغًا، فقالوا له يجب أن تمضي على اختفائها 24 ساعة، فعاد إلى البيت حزينًا مهمومًا قلقًا خائفًا، وظل يدخن ويتصل بكل من يعرفهم علّ أحدًا يكون رآها هنا أو هناك فيطمئنه، حتى شقشق الصبح معلنًا عن يوم جديد، وإذ بسائق توكتوك يطرق باب (خليل) ففتح لتوه مسرعًا ظانًّا أنها زوجته، فإذ به سائق معرفة، صافحه وقال في عجل: «صباح الخير أستاذ (خليل)، أعلم أنك تبحث عن زوجتك منذ الأمس، ويؤسفني أن أقول لك أنني قد أوصلتها بنفسي ورأيتها فيما لا أحب ولا تحب أن تراه.»

كاد خليل أن يمسك بجيب الرجل في جنون، وقال له في عصبية وغضب: «ماذا تقول أيها الرجل؟! أين زوجتي؟!»

رد الرجل وهو يحاول أن يفك يد (خليل) عن جيب قميصه: «تعال معي أستاذ (خليل) لترى بنفسك.»

ذهب خليل مع الرجل في توتر وعصبية أشد، والسيجارة لا تنطفئ حتى يوقد غيرها، حتى وصل لبيت على شكل (ڤيلا) من دون سور، متطرف في آخر القرية عند نهاية المزارع، فتوقف الرجل وقال

هذه ڤيلا لأحد البكوات يأتي إليها كل فترة، ويقيم لمدة ليلة أو أكثر، وطبعًا يطلب حريمًا وخمرًا وما إلى ذلك، والمتعهد له بذلك تقريبًا على علاقة بزوجة حضرتك، لأني سمعتها تقول له في الهاتف مؤكدةً على العنوان أنها وصلت، وعندما وصلت استقبلها الرجل كما – آسف، اعذرني أستاذي– يستقبل العاهرات التي يستقبلهن كلما نزل ولقد أعطته خدودها وظاهر جسدها يلتهم ما يشاء، ففهمت أنها الضحية الجديدة التي سيقضي معها إجازته، هذا الرجل ثري جدًّا ويُقَال أنه ذو منصب حساس.

نزل (خليل) واجمًا شاردًا مسرعًا يتمنى لو تخطفه الطير، أو انشقت الأرض فابتلعته ولا يكون كلام سائق التوكتك صحيحًا، ولكنه عندما طرق باب البيت، فتحت له زوجته في ثياب تكاد تكون عاريةً وهي شبه مخمورة وخلفها وقف رجل في سن الخمسين تقريبًا مخمورًا تمامًا يترنح متسائلًا عن الطارق، فسحلها خليل بملابسها العارية من شعرها حتى رماها في التوكتوك وأشبعها ضربًا.

ولأن الأمر كان في النهار والقرى صغيرة والكل يعرف بعضه فتقريبًا ما عدى التوكتوك على أحد إلا وأصابه الذهول والدهشة وهناك من جاء يجري خلف التوكتوك ليتفرج، وصارت فضيحةً حتى وصل لبيت أهلها فرماها لهم بعد أن رمى عليها يمين الطلاق بائنًا ثلاثًا.

طلقها، لكن ظلت عوالق قصتها القذرة تطارده، حتى فُجِع بعدها بأقل من يومين بوفاة أمه، فالتهى الناس قليلًا عن هذا بذاك وإن لم يسكتوا تمامًا، والناس عندما يكونون فارغي العقول والقلوب تجدهم منشغلين بغيرهم أكثر من أنفسهم، ينشغلون بهذا طلق، وهذه كيف ماتت، وهؤلاء كيف أصبحوا وأولئك لم تفرقوا، لكن عندما يكون الإنسان ذا عقل ممتلئ بأهداف يسعى لتحقيقها، وقلب شاغر بالحب، مشغول بكيفية توزيعه لن تجد عنده وقت لتتبع عورات غيره ولا الحديث عنهم.

بدأ العمال في بناء الفصول الجديدة بناءً على توجيهات المقاول وإشراف السيدة (حليمة)، وكانت (هديل) تكاد تطير من الفرحة وهي ترى أن الله ينير لها حلمًا؛ كاد الظالمون يطفئوه بسواد قلوبهم، فدار (نعمان) لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة صارت من أكبر دور تحفيظ القرآن الكريم في الناحية كلها وليس فقط في القرية.

وبدأت (هديل) تفكر أن تعمل افتتاحًا جديدًا بليلة إنشاد جديدة لمدح النبي، لكن هذه المرة في ذكرى المولد النبوي الشريف، وتفتتح فيها وبها الفصول الجديدة وتقوم بتوزيع الحلوى وبعض الكتيبات الفاخرة التي جاءتها كهدايا عينية، وعينات مجانية لبعض دور الكتب لسيرة النبي (ﷺ) للأطفال.

وقد جاء المولد وكان الافتتاح مبهرًا ساهرًا جميلًا، فرح الأطفال كالعادة فيه، وتمتعوا عندما جلس الراوي يغني سيرة الحبيب الزين محمد رسول الله (ﷺ)، ويحكي قصته ويصف جماله، ثم قامت (هديل) لتوزع على الأطفال الكتيبات، وبينما هي تفعل إذ بكف صغير تعلمه جيدًا يقول لها في مرح: وأنا أيضًا يا ماما أريد كتابًا وبالونًا وشوكولاتةً، فابتسمت هديل ونزلت لتمسك بإبهامها وسبابتها خدي (بيان) ثم وضعت قبلةً عميقةً وقالت مبتهجةً: «من عيني يا حبة عيني ماما.»

وعندما جاءت لتقف إذ بيد تمسك بيدها وتسندها في حنو، كانت هي يد (عثمان)، كان على الفور هو اليد التي سندت (هديل) لتقف، فارتجف قلبها وارتعشت يداها كعصفور صغير جاءت أمه لتوها تلقمه حبًّا من بعد جوعه.

وتلاقت أعينهما ثانيةً، لكن هذه المرة طال عناق الأعين حتى انفصلا عن الواقع، وكأن الحفل ما عاد فيه غيرهما، ذابت (هديل) في فنجان عين (عثمان) تمامًا كحبة سكر، ثملت من نظرته وإن لم تذق خمرًا، شعرت وكأنها سندريلا على جناح فراشة وردية طارت بها للحظة...

طالت وقفة الأستاذ (عثمان) وكيل النيابة مع السيدة (حليمة) منفردين؛ حتى جلست السيدة وأشارت له بالجلوس في (مندرة)

الدار تاركين الحفل، بينما عينا (هديل) تراقبها عن كثب، وقلبها يخفق من شدة التوتر، تذهب لتلهو مع الأطفال وتلهي نفسها بسماع المنشد قليلًا وهو يمتدح رسول الله (ﷺ)، ثم تعود لتقف في نفس الزاوية المقابلة للمكان الذي يجلس فيه (عثمان) مع السيدة (حليمة)، حتى لمحت السيدة تبتسم وتلتفت إليها، فأظهرت (هديل) وكأنها مشغولة مع الأطفال، فنادتها السيدة (حليمة) فركضت (هديل) كطفلة صغيرة تترقب حلواها من أمها.

فمسحت السيدة على ظهرها وقالت لها إن الأستاذ (عثمان) طلب يدها للزواج، وهو متكفل بكل شيء حتى ملابس البيت قبل الخروج سيشتريها؛ لكنني قلت له أن ابنتي سيتم شوارها وتجهيزها كأجمل عروس، وستذهبين له وكأنك عدت بكرًا، فما رأيك يا ابنتي؟!

احمرّ وجه (هديل) ولم تستطع أن تقول شيئًا وأخفضت طرفها حياءً، وقالت في براءة العذراء: «الرأي ما ترينه يا أمي، لكن...»

علمت السيدة (حليمة) ما دار برأس (هديل)، كما علم به (عثمان) نفسه، فقام الأخير بالرد:

– إذا كنت قلقَّة بشأن (إبراهيم) سأخبرك أمرًا: قبل أن آتي للحفل ببضعة أيام بصفتي صديقًا للعائلة اتصلت بي السيدة (حليمة) وأعلمتني بالقصة كاملةً، ولي صديق يعمل ضابطًا في المباحث كلفته بتحريات حول الموضوع، وعلمت أن طليقك خاسر

لا محالة قضيته معك في طلب حضانتك للطفل، فلقد حدث ما سيحسم الأمر، لكن ما أردت أن أخبرك خشيةً عليك من الصدمة.

– ماذا حدث يا (عثمان) بربك أخبرني؟!

– إبراهيم حُرقت يده بسبب إهمال زوجة طليقك والتي طلقها بفضيحة عافانا الله وسترنا بالدارين، وبالتالي سنضيف ما حدث لملف القضية ونتهمه بالإهمال وستكسبين القضية من أول جلسة بإذن الله، كما أن تقارير الأطباء الحديثة تثبت شفاءك التام، والحمد لله، وأنك بكامل صحتك النفسية، ولقد اتفقت مع السيدة (حليمة) أن يكون الزواج بعد أن تكسبي قضيتك بضم ابننا، وليشهد الله أنني ومنذ اللحظة سيكون (إبراهيم) أخًا لابنتي (بيان) ومسؤولًا مني مسؤوليةً تامةً أمام الله.

ابتسمت (هديل) ولمعت عيناها بدمعتين من الفرحة ولهث لسانها بالشكر والحمد لله، وكادت أن تحتضن (عثمان) بعينيها، وتعانقه فلا تتركه إلا وقد أوفته شكرًا، لكن حياءها وكونها ما زالت لا تحل له منعها، فاكتفت بالنظر له في فرح ممزوج بالتيه والوله.

جلس (خليل) منكّس الرأس دامع العينين، ينظر لصورة (هديل) التي كان يحتفظ بها في هاتفه المحمول في ملف سري، كان يخفيه عن أمه وزوجته، لكنه الآن يطالعها في وضوح ودون خوف، ينظر لها وكأنه يعتذر عن كل السنوات التي أهدرها في بعده عنها وهي

الوحيدة التي كانت تفهمه دون أن يحكي، وتحدثه دون كلام.

دخل أبوه، فوجده في هذه الحالة، فقال له في حنو بالغ: «ثم ماذا بعد يا بني؟! هل ستظل تبكي على الأطلال هكذا لتضيع ما تبقى من عمرك في الحزن والكمد، والحزن لا يعيد ما راح ولا يغني أحد.»

رفع (خليل) رأسه والدموع بدأت تنزل منهمرةً لا ترحم رجولته، وقال في نشيج اختنقت معه كلماته: «وماذا يمكنني أن أفعل يا أبي، وكل شيء ذهب وانقضى، حتى ما كنت أمتلكه أخذته الفاجرة بحكم المحكمة كقائمة منقولات، فلم تبقِ شيئًا يمكنني حتى من البدء من جديد.»

نكس الحاج (صابر) رأسه وأعلا من كتفيه، وقال في وجوم وجدية: «لن ينفعها يا بني، ثم فلتذهب هي وما أخذته إلى الجحيم، فداك وفداءً لابنك، لو تتذكر يا (خليل) أنا لم أكن موافقًا أبدًا على زواجك من هذه المرأة وحذرتك، لكن الله يرحمها ويسامحها أمك شجعتك وظنت أن بزواجك منها ستغيظ (هديل) وتدفعها للانتحار، لكن (هديل) نفضت عن طرف ذيلها ما علق منك من ذكريات، وتطلعت لعملها وحققت لنفسها ما سعت أمك وأخوها لهدمه، فأصبحت من أصغر سيدات الأعمال ومسؤولةً عن أكبر دار لتحفيظ القرآن الكريم في المحافظة كلها.»

«والله يا بني خطرت ببالي فكرة، ما رأيك لو أعدت شملك بها،

لتربيا ابنكما معًا، وتكملا حياتكما، وهي الآن غنية وستمدك بكل ما تحتاجه وفقدته لتبدأ من جديد؟!»

نظر (خليل) إلى أبيه نظرة استغراب تمتزج بالدهشة والأمل في آن واحد، وقال: «وهل يمكن ذلك بعد كل ما حدث، وبعد كل هذه السنوات؟!»

فقال والده: «ولم لا يا بني، فلتغامر ولتحاول، ولن تخسر أكثر مما خسرت، ففي الحب قوة، والجبن للضعفاء.»

ابتسم (خليل) وكأن الفكرة راقت له، وقال: «حسنًا، غدًا، سآخذ إبراهيم ونذهب إليها، علها عندما تراه يلين قلبها وترق لما سأطلبه منها.»

وبينما (خليل) وأبوه يتبادلان أطراف الحديث دق جرس البيت، فقام (خليل) ليفتح فإذا بمحضر يسلمه ورقةً بموعد جلسة المحكمة في قضية ضم (هديل) لابنها، فوضع (خليل) توقيعه وتسلم الورقة وهو غاضب، ولما انصرف المحضر أغلق الباب، والتفت إلى أبيه وقال: «انظر، غدًا موعد القضية، وكأنع فات الأوان كثيرًا يا أبي، للدرجة التي سيكون أول لقاء بيننا في المحكمة.»

في الصباح، وعندما ارتفعت شمس الضحى لتنير الكون بهجةً وجمالًا، كأنه لم يكن بهذا الجمال من قبل، نزلت (هديل) منشرحة

الصدر ترتدي عباءةً فيروزية اللون، وغطاء رأس بلون جَمَلي، وحملت حقيبة يد أنيقةً كبيرةً لونها يجمع بين الفيروزي والجملي، وفي إصبعها خاتم فيروزي زاده حلًّا وجمالًا، وفي قدميها حذاء أرضي جَملي مريح، ووضعت على عينيها نظارةً شمسيةً بُنيةً، فبدت وكأنها فتاة جامعية مبهجة.

ونزلت درج سلم البيت تسند السيدة (حليمة)، فلما رآها (عثمان) تسمرت عيناه وانبهر فاغرًا فاه، وقال: «ما شاء الله، اللهم بارك، هل كل هذه الأنوثة والرقة والبهجة والبراءة ستكون لي وحدي.»

تلعثمت (هديل) وابتلعت ريقها، واحمرت وجنتاها، ولم تستقر عينها تحت النظارة، وذابت كقطعة سكر من شدة الخجل، وارتعشت يدها الممسكة بالسيدة (حليمة)، فابتسمت السيدة وربتت على يدها وقالت: «اللهم بارك لهما وبارك عليهما واجمع بينهما في خير.»

ركبوا جميعًا سيارة (عثمان) وانطلقوا إلى المحكمة، وهناك ولأول مرة ومنذ سنوات التقت عينا (هديل) و(خليل) داخل قاعة المحكمة، وانصرفت عين الأخير لتتسمر على (عثمان) وكأنها تستفسر من يكون هذا؟!

لكن نظرة مقت واحتقار وتجاهل من (هديل) صفعت (خليل)،

لتسكته وإن لم ينطق، خاصةً وقد رفعت يدها في رقة وكأنها تعدل من حجابها فظهر خاتم خطبة أنيق بيدها اليمنى، فألجم (خليل) لجام الصمت للأبد على ما يبدو، فخر على كرسيه غاضبًا يعضّ على إصبعه غيرةً وكمدًا.

بعد مرافعات للمحامين، وبعد الاطلاع على أوراق القضية، حكم القاضي بضم الطفل (إبراهيم خليل صابر) إلى أمه السيدة (هديل عرفة)، رُفِعت الجلسة، خرت (هديل) ساجدةً لله شاكرةً، وهللت وكبرت السيدة (حليمة) أما (عثمان) فوقف مع المحامي يستعجله أن يستعجل ضم الطفل فورًا لحضن أمه، وقد كان.

تزوج (عثمان) بـ(هديل) وانتقلت للعيش معه في بيت جديد بناه بجوار السيدة (حليمة) التي عاشت لسنوات قليلة بعدها حتى رأت أول حفيدة لها من ابنتها (هديل) والتي أسمتها على اسمها (حليمة)، ثم رقدت السيدة الطيبة في أمان في ليلة خميس من العشر الآواخر من رمضان وهي صائمة تسبح على مسبحتها بعد صلاة الفجر، فودعتها (هديل) بالدموع، لكنها ستظل حيةً في القلوب.

وعاشت (هديل) مع (عثمان) وربت ابنته (بيان) كأنها ابنتها، وتكفل (عثمان) بتربية (إبراهيم) حتى تخرج ضابطًا من الكلية الحربية، وزُفَّت (بيان) إلى (إبراهيم)، ورُزِقُوا من البنات بـ(بينات) ومن الصبيان بـ(بهاء الدين)، وعاشوا جميعًا في أمان وسلام.